كتاب

هنا وهناك

وهو حديث الشيخ السوري مع الشاب المصري

عن حال القطرين الشقيقين والبحث في سياسة حكومتيهما الداخلية

بقلم الشيخ

محمد القلقيلي

« السوري الأزهري »

(وقد نشر هذا الحديث في احدى الصحف المصرية الكبرى)

طبع في القاهرة

سنة ١٣٣٣ هـ

١٩١٥ م



وهو حديث الشيخ السوري مع الشاب المصري

عن حال القطرين الشقيقين والبحث في سياسة حكومتيهما الداخلية



السوري الازهري

(وقد نشر هذا الحديث في احدى الصحف المصرية الكبرى)

القاهرة

[illegible]

اهداء الكتاب

(الى ولدي خير الدين)

اي بني

اعتاد كثير من المؤلفين ان يهدوا مؤلفاتهم الى ملك عظيم او امير خطير او وزير كبير او غني شهير او صديق حميم استمطارا لاعطيات الملوك والامراء والوزراء واستدرارا لهبات الاغنياء وتأكيدا لصداقة الاصدقاء وأبوك يا خير الدين لم يستمطر عطاء ولم يستدر هبة طول حياته من احد

وقد ادرت نظري في هذا العالم لارى صديقاً حميماً او محباً عزيزاً اهدي اليه كتابي هذا فلم ار احب الي ولا اعز على قلبي منك فأهديت اليك هذا الكتاب وأنت طفل صغير فاذا كبرت غدا ودخلت ميدان هذه الحياة وكان ابوك دارجا مع الدارجين ولاحقا بالآباء الاولين فاتخذ هديته هذه استاذاً يعلمك كيف تحب الاوطان وكيف تكره الاستبداد والمستبدين وتمقت الظلم والظالمين وكيف تحب العدل وتعشق العادلين ويرشدك الى ان الشجاعة الادبية في قول الحق وتقرير الصدق شيمة الوطنيين الصادقين وشنشنة المصلحين المخلصين فكن شجاعا يا بني في خدمة وطنك وأمتك ولا يثنك عن [illegible] صولة اهل الباطل وقوة اهل [illegible] كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين بأذن ربها ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار. وفقك الله يا بني الى ما فيه خير أمتك وسعادة اوطانك لتكون من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه

والدك

محمد القلقيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي من لدنك وليا واجعل لي من لدنك نصيرا . اللهم ارني الحق حقا وعلمني اتباعه وارني الباطل باطلا وعلمني اجتنابه

لك الحمد يا مدير الكون بنظامات لا تتغير وسنن لا تتحول ولا تتبدل . لك الحمد ارسلت الرسل وبعثت الانبياء يدعون الامم والشعوب والقبائل الى النظام الرباني ويهيبون بهم الى السنن الالهية لتنتظم امورهم وتستقيم احوالهم فسعد من اجاب وكان في عيشة راضية وسعة من الرزق وبسطة في الملك فساد وشاد ورفع العماد ودانت لسطوته رقاب العباد . وشقي من حاول وكابر وانحرف عن الصراط السوي وكان في عيشة ممقوتة ورزق ضيق وملك ممزق فذل وانحط وصار سخرية الساخر وهزأة الهازيء وضحكة الضاحك ونهبة الناهب وأكلة الآكل

لك الحمد ارسلت محمدا بشيرا ونذيرا يقص علينا في القرآن قصص الامم البائده وحوادث الشعوب المنقرضه لنعتبر ونتعظ ونعلم ان سنن الله ونظاماته في هذا الكون واحدة لا تتغير بتغير الزمان ولا تتبدل بتبدل المكان فأمرنا بالعدل والاحسان لانهما اساس العمران ونهانا عن الظلم والعدوان لانهما من موجبات الخزي والخذلان . وحذرنا ان نفعل فعل قوم عاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد او فعل قوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد او فعل قوم فرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد لئلا يصب ربنا علينا سوط عذاب كما صبه عليهم ويأخذنا بذنوبنا كما أخذهم بذنوبهم . لك الحمد ياذا العظمة والكبرياء والعزة والجلال تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

والصلاة والسلام على محمد النبي الامي العربي الذي جاء بدين يهذب الاخلاق . ويطهر النفوس ويثقف العقول فدعا الى العدل في الاحكام

والرفق بالناس ولعن الظالمين ومقت الطاغين الباغين واثنى على العادلين واحب العاملين . صلاة وسلاماً دائمين متلازمين الى يوم الدين. وعلى آله واصحابه الذين اعزوه ونصروه وآمنوا بما جاء به من الآيات البينات فأحيوا الامة ورفعوا شأنها وبسطوا سلطانها حتى دانت لذلك السلطان مشارق الارض ومغاربها

اما بعد فقد اتى على الامة الاسلامية حين من الدهر كانت فيه على قلة عددها امة حية ذات كلمة مسموعة وقول مطاع وجانب عزيز وقوة دكت الحصون وثلث العروش وفلت الجيوش وملكت الاقطار وفتحت المدن والامصار واخضعت الامم والشعوب واذلت الجبابرة والقياصرة. في ذلك الحين كانت الامة الاسلامية سائرة على سنن الله ونظاماته فعمرت البلاد حتى جعلتها جنات تجري من تحتها الانهار وأمنت الناس على اموالهم وارواحهم واعراضهم بلا فرق بين جنسياتهم واديانهم وعدلت في الاحكام حتى ساوت بين الشريف الخطير والصعلوك الفقير وكرهت الظلم والظالمين وخذلت الباطل والمبطلين ونصرت اهل الحق واليقين وأعلت منزلة الصدق والصادقين واقامت الحرية على اساس متين حتى صار يضرب المثل بالامن والاطمئنان في ذلك الزمان وحتى قال ثاني خلفائهم وهو على منبر المسجد «من رأى في عمر اعوجاجا فليقومه» فقال قائلهم «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا»

هكذا كنا وكانت ايامنا واصبحنا اليوم اسباب امة خافتة الصوت مردودة القول ضعيفة الجانب . تدك حصوننا وتثل عروشنا وتفل جيوشنا وتمزق اوطاننا وتؤخذ ديارنا وتملك اقطارنا وتفتح مدننا وامصارنا وتذلنا احقر امة ويهيننا اصغر شعب وما ذلك الا لاننا انحرفنا عن سنن الله ونظاماته في هذا الوجود فطغينا وبغينا وجرنا وظلمنا واقمنا الفوضى مقام النظام والاستبداد مقام القانون والظلم مقام العدل والخراب مقام العمران والهمجية مقام التمدن والجهل مقام العلم والقلق والاضطراب مقام الامن والراحة فاصابنا ما اصاب المنحرفين عن صراط الله المستقيم تقطيع اطراف وتمزيق اوصال يعقبهما فناء وانقراض «واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»

ارجع الى تاريخ الامم التي قص الله علينا في القرآن اخبار موتها وانقراضها وأنعم النظر في فلسفة تاريخها فلا ترى في تاريخ من تلك التواريخ الا ظلما واستبدادا من الحاكمين واستسلاما وجهلا من المحكومين فحل بها من الخراب والدمار والهلاك وضياع الاستقلال ما جعلها عبرة للمعتبرين وموعظة للمتعظين. وقد اقتفت حكومتنا التركية اثر تلك الحكومات في الظلم والاستبداد واقتفينا نحن اثر تلك الامم في الجهل والاستسلام للحكام الغاشمين فلا بد ان يصيبنا ما اصابهم ويحيق بنا ما حاق بهم . سنة الله في الامم والشعوب ولن تجد لسنة الله تحويلا ولا تبديلا

«كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» آيتان من آيات القرآن تبينان لنا مقدار تأثير الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الامم وموتها . تبينان ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاسباب الكبرى في حياة امه . وتركهما من الاسباب العظمى في موت امه أخرى .نقرأ هاتين الآيتين وكثيراً مثلهما في القرآن فنمر بها غافلين جاهلين لا نتدبر لها قصدا ولا ندرك لها مرادا فاسترسلت حكومتنا في الظلم والعدوان ولم تجد منا من يقول لها ان الله يأمر بالعدل والاحسان وينهي عن الفحشاء والمنكر بل لم نجد منا من يقول لها قول بشار

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

بل لم تجد من يقول لها هذا منكر فاجتنبيه وهذا معروف فابتغيه بل أخذت منا لها الانصار والاعوان يمجدون ظلمها ويحمدون استبدادها ويدعون الناس باسم الدين الى الرضا ببغيها وعدوانها

هذا شأن الحكومه التركيه العثمانيه معنا وشأننا مع الحكومه التركية العثمانيه من اليوم الذي مشى فيه مرض الهرم والانحلال الى جسم الدولة حتى ايام عبد الحميد . ففي تلك الايام كثر دعاه الاصلاح وكثر الآمرون بالمعروف الناهون

عن المنكر ولكن سرعان ما عاد اكثر اولئك الدعاة الى حظيرة المستبدين يتمتعون بوظائفهم ويتقلبون في مناصبهم ويشاركونهم في القاب التحميد والتمجيد الا ان جماعة منهم وهم جماعة الاتحاد والترقي ثبتوا في الميدان واشتغلوا في قلب كيان الاستبداد الى ان وصلوا بقوة الجيش الذي اغروه بالمال الى غايتهم فقلبوا عرش عبدالحميد وشتتوا شمل حكومته واعلنوا الدستور

هناك فرح المسلمون عموماً والعرب منهم خصوصاً وطرب المسيحيون والاسرائيليون وقال جميعهم مع ابها زهير

صفحا لهذا الدهر عن هفواته　　　اذ كان هذا اليوم من حسناته

هناك اخذوا يقيمون الحفلات وينظمون المهرجانات والمظاهرات ويهتفون لجماعة الاتحاد والترقي وينشدون لهم اناشيد المدح والثناء وينظمون لهم عقود الحمد والاطراء وكادوا يخرجونهم من صفوف البشر الى صفوف الملائكة

رحب العثمانيون بالدستور لانهم ظنوا انه يعيد اليهم مجدهم الداثر ويقيل جدهم العاثر ويحفظ لهم ما بقي مما يملكون من الاوطان ويرفع رؤوسهم بين الامم الحية الراقية وينفض عن جبينهم غبار الذل والمسكنة ويرجع الى بلادهم أمنها وطمأنينتها والى حكومتهم هيبتها ورهبتها والى دولتهم شبابها وفتوتها والى قومياتهم عزها وسعدها والى جنسياتهم حقوقها ومدنيتها . والى خطبائهم الالسنة المفوهة والى كتابهم الاقلام البليغة والى صحافتهم الحرية المعتدلة فطفقوا ينشئون الجمعيات والصحف ويتسابقون الى منابر الخطابة وتحرير الصحف وكلهم يدعو الى الالتفاف حول الرايه العثمانية وكلهم يقول «لو لم اكن عثمانيا لتمنيت ان اكون عثمانيا» وكلهم نزع ما وضعه الاستبداد والمستبدون في الصدور من الاحقاد والضغائن فتعانق الشيخ والقسيس والحاخام ووضع كل سلاحه تحت اقدام أخيه

ولم ينته الناس من اقامة تلك الافراح والحفلات والمهرجانات حتى اصبحوا يرددون قول حافظ ابراهيم

كان عبد الحميد بالامس فردا　　　فغدا اليوم الف عبد الحميد

اذ ظهر الاتحادبون بعد ان هدأت الزوبعة انهم من تلاميذ عبد الحميد في الظلم والاستبداد والتفريق بين العناصر والتخريبوالتدمير والاستئثار بالسلطة والحكم وان كل واحد منهم حكومه في قلب حكومة . وانهم لم يحاربوا عبد الحميد ولم يهدموا عرشه ولم يشتتوا شمل حكومته الا ليحلوا محله وينهبوا ما جمعه من الاموال والمجوهرات وطفقوا بـديرون دفـة السباستين الداخلية والخارجية بلا عقل ولا منطقولا بصيرةفعادوا اصدقاءنا الذين انقذونا مرارامن التهلكة وحاربوا معنا بجنودهم واساطيلهم حتى ردوا عنا عاديات الدهر ومصائب الزمان وحفظوا علينا استقلالنا وكرامتنا . وأخذ الاتحاديون بتغلغلون فياحضان اعدائنا الذبن لم نر لهم يوما محمودا بل اغتصبوا بلادنا وهاجموا ولاياتنا واطمعوا الطامعبن فبنا من جبراننا ففقدنا بهذه السباسه الخرفاء من الولابات ما لم نفقد مبله في ايام عبد الحمبد ولا تزال الولابات تذهب منا ولايه بعد ولايه وربما لا تنتهي سنتنا هذه الا وعاصمننا لاحقة بالذاهب من الولايات. وبسباستهم الداخلية اقفرت البلاد من سكانهـا وامحلت الارض من نباتهـا وخلت الاوطان من عمرانها واصبح البافون من سكان البلاد سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الظلم والعدوان سدبد لا يطاق

فعل الاتحاديون الاتراك كل هذا والآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر يظهروناحياناً ويختفوناحباناً الىان ارضت الحكومة زعماءهم بالوظائف والمناصب والدراهم فانقلبوا من المعارضة والمناجزة الى الموافقة والاستسلام بل الى التحبذ والتحمبد والتمجيد فاصبحت الامه بطبس الاتحادبين وخرق سباستهم وطمع المتصدربن للزعامه منا وسرهم وسوء ادارتهم الى الموت والانقراض اقرب منها الى الحياة والبقاء

وان كان امر المسلمين العثمانيين مع حكومتهم غربيا فأمر بعض المسلمين المصريين اعجب واغرب . هؤلاء القوم انعم الله عليهم بحكومة رشيدة عاقلة مدبرة معمرة تسوسهم بالعدل والرفق والاحسان كما كان الخلفاء الراشدون يسوسون الامم والشعوب فحفظت أمنهم وأبدت نظامهم واقامت العدل في

محاكمهم واحكامهم وعمرت بلادهم ورقت معارفهم واغدقت عليهم الذهب والفضة وخاطبتهم في رسمياتها بلسانهم العربي المبين واحتفظت بعاداتهم واخلاقهم وشعائرهم الدينية والقومية . مع هذا ترى هؤلاء الناس يعطفون على حكومة المخربين المدمرين ويدافعون عن ظلمها واستبدادها وينكرون تأخرها وانحطاطها كما ينكرون على المصطلي بنار بغيها وجورها ان يتأفف ويتضجر ويشكو من ذلك العذاب الاليم . يدافعون عن ظلمها واستبدادها لانها في نظرهم حكومة اسلامية اوهي البقية الباقية من الحكومات الاسلامية المستقله ونسوا ان الاسلام لا يتفق مع اعمال الظالمين الجائرين . يدافعون عن ظلمها واستبدادها لانهم في نعمة من الله وعافيه من ذلك الظلم والاستبداد فلم يذوقوا بعض ما ذقناه ولم يشعروا ببعض ما نشعر به من الآلام . ولو عقلوا وكانوا يحبونها حبا حقيقيا لوقفوا في مقدمه صفوفنا وطالبوها معنا بالاصلاح ولكنهم كانوا في جميع ادوارنا مع حكومتنا يقفون في طريقنا حجر عثرة . يعارضوننا ان شكونا . يعارضوننا ان بكينا . يعارضوننا ان طالبنا بحياتنا وحياة دولتنا

لهؤلاء القوم وضعت هذا الكتاب فوضعت في اوله فصلا تحت عنوان «الدين الاسلامي والنائحون عليه» وفيه بينت ان الدين الاسلامي دين عدل وعمران واعمال حكومه الاتحاديين اعمال ظلم وخراب فكيف يتفق النقيضان او يجتمع الضدان وان الاستقلال الاسلامي محفوظ لا خوف عليه في كل زمان ومكان ثم اعقبت هذا الفصل بفصول متسلسله جعلتها حديثاً بين شيخ سوري وشاب مصري وفيها قابلت بين حال القطرين الشقيقين والامتين المتجاورتين واعمال الحكومتين في الجهتين والغرض من وضع هذا الكتاب ان لا اكون شيطانا أخرس(١) وان اخرج من لعنة الذين لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر وان أخدم التاريخ والبلاد التي أظلتني سماؤها واقلتني ارضها ربع قرن . ولا اريد بذلك الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا

محمد القلقيلي

---

(١) اشارة الى الاثر المشهور الساكت عن الحق شيطان اخرس

الاستقلال الاسلامي والنائحون عليه

اری حولي اناساً يتخوفون على الاستقلال الاسلامي ان تعصف به رياح هذه الحرب فتذهب به الى حيث ذهب استقلال الامم المنقرضة والشعوب البائدة . لذلك ينوحون ويبكون احياناً ويتجلدون فيظهرون من الضعف قوة ويقلبون الحقائق ويقولون بافواههم ويذيعون بالسنتهم كثيرا من المضحكات المبكيات احياناً أخرى

وكان يجب علي وانا مسلم ان اتخوف مع المتخوفين وانوح مع النائحين وابكي مع الباكين واتجلد مع المتجلدين ولكن اسلامي لا يمنعني من ان اغلب العقل على العواطف والحقائق على الاوهام والاحلام . فالاستقلال الاسلامي — وان كان ضالتي المنشودة والغاية التي اسعى الى تحقيقها امس واليوم — اصبح بفضل حكومة انور وطلعت وجمال اسماً بلا مسمى واثرا بعد عين

لم يأت على الاستقلال الاسلامي حين من الدهر كان فيه مضعضع البنيان مزعزع الاركان مثل هذا الحين الذي استولى اولئك المخربون المدمرون فيه على حكومه . ولم يذل المسلمون العثمانيون في زمان مثلما ذلوا في زمان انور وطلعت وجمال . ولم يلاق المسلمون العثمانيون اهانة مثلما اهينوا في زمان هذه الفئة . فالبلاد التي اضعناها والاقطار التي فقدناها وكرامة الجيش التي خسرناها لم نر مثلها في زمان عبد الحميد وحكومة عبد الحميد . واطماع الطامعين فينا لم تقو ولم يشتد شرها الا في ايام دولتهم وحكومتهم فكيف والحالة هذه ننوح عليهم ونبكي على أيامهم ونتحسر على استقلالهم ؟

وأين هذا الاستقلال الذي يدعونه ؟ . هل هو ما كنا نراه في البلاد العثمانية من تعدي رعاع الاجانب على الوطنيين ؟ . هل هو ما كنا نراه في تلك البلاد من قيام الحكومات المحليه بخيلها ورجلها ان اعتدى معتد على أجنبي فتنزل عليه وعلى اقاربه وجيرانه تسومهم سوء العذاب فتخرب بيوتهم وتروع اطفالهم وترعب نساءهم . وان اعتدى الاجنبي على الوطني او اقام في البلاد حكومة في

قلب حكومة وخطف « رواح برصاصه ونهب الحاصل والمحصول بقوته فلا تقول له الحكومة حينئذ الا «هنيئاً مريئاً غير داء مخامر»

ان الاستقلال الذي لا يحمي المستظل برايته داخلاً وخارجاً ولا يرفع رأس المنتمي اليه اينما حل وذهب والذي يجعل البلاد مفتوحة الطرق للغزاة ومشرعة الابواب للفاتحين وهدفاً للطامعين لا يستحق النوح والبكاء لانه لا يدفع مقدوراً ولا يمنع محظوراً

لا أدري كيف يكون انور وطلعت وجمال حماة للاستقلال الاسلامي وهم الذين ألقوا بدولتنا وبلادنا وزهرة شباب امتنا في احضان الالمان يتصرفون فيهم تصرف المالك في ملكه ؟ كيف يكون هؤلاء حماة الاستقلال الاسلامي والالمان القابضون على روح القوة في المملكة العثمانيه مسيحيون عريقون في المسيحية يسوقون ابناءنا واخواننا وابناء عمومتنا وخؤولتنا الى الموت والهلاك لا ليردوا ضائعاً أو يعيدوا مفقوداً بل ليوسعوا املاك الالمان ويركزوا اعلام سيادتهم على حصون الامم وقلاعها . كيف يدعون حمايه الاستقلال الاسلامي وهم من اليوم الذي استأثروا فيه بالسلطة يقاومون من يريد للاسلام اصلاحاً وللمسلمين صلاحاً ويناهضون القرآن ويخنقون لغة القرآن . بأي حق يتشدق المتشدقون بأن حكومة انور وطلعت وجمال حامية للاستقلال الاسلامي والبلاد العثمانيه اصبحت في عهدهم خرابا يباباً ينعق البوم على اطلالها . فقر مدقع وجهل مطبق واحكام جائرة وحكام لا يدرون من معنى الحكومه غير خراب الاهلين ودمارهم

ان من يريد ان يحمي استقلال امه يحسن سياستها ويعمر بلادها ويخصب ارضها وينمي مزروعاتها ويروج حاصلاتها ويحفظ أمنها ويقيم العدل والقسط بين اهلها ويعلم جاهلها ويحتفظ بعالمها ويسهر لتنام ويتعب لتستريح ويعمل لانشاء المعامل والمصانع فيها لتشعر الامه بأن لها حكومة تحبها وتحب حياتها وندأب لخيرها وسعادتها . حينئذ تملأ هذه الامة فراغاً في معترك تنازع البقاء وتعلن عن وجودها في الوجود فتشعر الامم الاخرى بحياتها فتحسب لها حساب

الموجود . حينئذ لا يعتدي عليها معتد ولا يطمع في جانبها طامع . حينئذ يقول كل فرد من افرادها لو لم اكن من هذه الامة لتمنيت ان اكون منها . حينئذ يحق لمن عمل لهذه الامة مثل هذه الاعمال ان يفتخر على رؤوس الاشهاد ويقول بملء فيه انا حامي حمى الامة انا الحافظ ذمارها انا الذائد عن حياضها انا المحتفظ باستقلالها فلايسمع حينئذ ممن حوله الاكلمة صدقت صدقت وبالحق نطقت. وهناك يجود كل فرد من افرادها بماله وروحه وولده للدفاع عن هذا الاستقلال وان خانتهم الاقدار ولم يغنهم الدفاع شيئاً حق لهم ان يبكوا على استقلالهم وينوحوا على حياة حكومتهم . فهل تستطيع حكومة انور وجمال ان تدعي مثل هذه الدعوى وكل شيء في بلادها يكذبها وان كانت لا تستطيع فكيف نبكي عليها وننوح على استقلالها الموهوم ؟

على انني لم افهم ماذا يريد أولئك الباكون النائحون من الاستقلال الاسلامي . هل يريدون ان حكومة انور وطلعت وجمال حكومة اسلامية وبحفظ هذه الحكومة حفظ للاستقلال الاسلامي فان كان هذا ما يريدون فأقول لهم اخطأتم فالحكومة الاسلامية أي الحكومة التي يريدها الدين الاسلامي ليست هذه الحكومة . واذا رجعتم الى آيات القرآن الكثيرة وجدتموها تخرج هؤلاء الناس من الاسلام ودين الاسلام لان افعالهم واعمالهم تبتعد كثيراً عن مبادىء الاسلام وتعاليم الدين الاسلامي ومن كانت افعاله واعماله مثل هذه الافعال والاعمال فليس هو من الدين في شيء ولا الدين منه في شيء وان نطق بالشهادتين اذ الدين دين افعال واعمال لا دين الفاظ واقوال . واعظم دليل أن أفعال واعمال حكومة انور وطلعت وجمال بعيدة من الدين والدين بعيد منها ما نراه في البلاد العثمانية من الخراب والظلم والاستبداد والدين الاسلامي دين عمران وعدل وحرية فكيف يتفق النقيضان أو كيف يجتمع الضدان

وان كانوا يريدون من الاستقلال الاسلامي حفظ الاحكام الشرعية والشعائر الدينية من التعطيل فلينعموا نظرهم قليلاً يروا تلك الاحكام وهذا الشعائر محفوظة مرعية في كل زمان ومكان . وهذه البلاد الاسلامية المحتمية بالحماية

البريطانية أو المستظلة برايتها تتمتع بحريتها الدينية اكثر مما تتمتع به البلاد العثمانية . والدين الاسلامي محفوظ فيها حفظاً لا تحلم به البلاد العثمانية واللغة العربية التي هي لغة الدين وجدت وتجد في هذه البلاد ما لم تجد عشر معشاره في البلاد العثمانية . والنهضات الاسلامية تجد فيها من التعضيد والمساعدة ما لم تر شيئاً منه في البلاد العثمانية فلاخوف اذاً من هذه الجهة على الاستقلال الاسلامي فالدين محفوظ ولغته مرعية الجانب والنهضات الاسلامية يعضدها القوم ويساعدونها فماذا تريدون بعد ذلك ؟

تريدون ان تكون لكم دولة اسلامية مستقلة استقلالاً تاماً عن كل تداخل اجنبي او سلطة اجنبية فانا معكم اريد مثل ما تريدون ولكن هذا امر يحتاج الى طرح الاوهام والاحلام جانباً وتحكيم العقل على الهوى بل يحتاج الى رجال عاملين يعملون بعقل واخلاص وقوة ارادة وشجاعة ادبية لتحقيق هذه الامنية بل يحتاج الى ان تكسبوا ثقة دولة راقية مثل دولة بريطانيا لتساعدكم وتعاونكم في ما تريدون ولا تنالون هذه الثقة الا ان برهنتم على انكم اهل لها . فاعملوا ان كنتم تريدون دولة اسلامية مستقلة استقلالاً تاماً واذكروا انكم عرب قبل كل شيء وهذا افضل من النوح على غير طائل وانفع من البكاء بلا جدوى ولا فائدة

مناجاة الشيخ السوري بلاده واجتماع الشاب المصري به ومحاورتهما

على مقربة من شاطيء النيل في الجزيرة جلس شيخ سوري بعد ان افترش عباءته وقدم لربه مكتوبة العصر واستقبل جهة بلاده وأخذ يناجيها احياناً ويناجي ربه احياناً اخرى ودموعه تبلل لحيته المشتعلة شيباً فاقتربت منه حيث اسمع مناجاته فاذا هو يقول

بلادي ما اجمل مناظرك الطبيعية . ما اجود تربتك . ما اخصب مرعاك . ما احسن جوك . ما اصفى سماءك . ما أرق نسيمك ما أصح هواءك . بلادي ما اعذب ماءك . ما اكثر انهرك وينابيعك . ما اغنى طبيعتك . فأنت التي قالت عنها التوراة تدر لبناً وعسلاً لخصب تربتك وكثرة احراجك ومناجمك. فماذا دهاك اليوم يا جنة الله في الارض يا مهد الانبياء يا مهبط الوحي حتى اصبح اهلك يفلونك ويهجرونك الى بلاد لا انيس لهم فيها ولا سمير غير انيس العدل وسمير الأمن

مسكينة يا بلادي روعك الظالمون بظلمهم فشوهوا جمالك وطمسوا محاسنك وضيعوا مزايا طبيعتك . استبدوا فيك استبدادا غاشماً فامحلوا ارضك وأفقروا اهلك وهدموا العامر من بنيان حياتك . حرموك ابناءك العاملين وطاردوا رجالك المخلصين وخنقوا روح الحياة من علمائك النافعين . ولم يكفهم كل هذا حتى جاءوا في الايام الاخيرة وأخذوا زهرة شبابك والايدي العاملة في ارضك الى الموت الزؤام ولم يرحموا ما تركوا وراءهم من الشيوخ والاطفال والنساء والاولاد . ولم يكفهم هذا ايضاً حتى نهبوا ما في ايدينا وما في بيوتنا من مال ومتاع وحبوب وحيوان فأصبحنا لا نملك شروى نقير

يارب لماذا اشقيت سورية وأسعدت مصر وهما اختان شقيقتان . تلك تتعذب وتتألم . وهذه تهنأ وتتنعم . تلك في فقر . وهذه في غنى . تلك في شقاء مستمر مما تعانيه من ظلم الظالمين . وهذه في سعادة دائمة مما تلاقيه من عدل العادلين . سبحانك اللهم تسعد من تشاء وتشقي من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء .

اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف في ما جرت به المقادير

وما كاد الشيخ السوري يلفظ الكلمة الاخيرة حتى جاءه شاب مصري وحياه تحية الصديق للصديق وقال له يا عم ما لي لا اراك الا شاكياً باكياً تندب بلادك وتسخط على حكومتك فهل لك ان تقنعني او اقنعك لاني معك على طرفي نقيض في شكواك وسخطك وفي تفضيلك حالة بلادي على حالة بلادك . ولا تظن اني من أولئك الذين لا يقنعهم الدليل ولا يعيدهم البرهان الى الصواب بل انا من عبيد الحق حيثما كان وأينما وجد . فقال الشيخ السوري :

وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل

وأي دليل تريده يا بني على تعسنا وشقاء بلادنا وهذه بلادكم وبلاد السودان وأميركا الشماليه والجنوبية واكثر بلاد الله دليل لا ينقضه دليل على ما اصابنا واصاب اوطاننا من الخسران والدمار والبوار . هذه البلاد ملأى برجالنا وشبابنا فلماذا تركنا بلادنا واستوطناها وأنت تعلم ان حب الوطن غريزة مرتكزة في طبع كل انسان . ألان جوها افضل من جونا او لان مياهها اعذب من مياهنا او لان مناظرها اجمل من مناظرنا او لان تربتها اخصب وأجود من تربتنا او لان بلادنا تضيق بنا او لاننا خاملون جامدون ؟ لا شيء من ذلك فالسوري ذكي نشيط وسورية جنة الله في ارضه

اذاً فهناك مسئله اهم من هذه المسائل كلها وهي مسئله الحكومه . ففي بلادكم حكومه ذات نظامات وقوانين تؤمن الناس على اموالهم وأرواحهم وترفع شأن العدل في الاحكام والمحاكم وتسعد الامه في كل شأن من شؤون حياتها الاجتماعية والاقتصادية حتى اصبحتم وأمسيتم تلعبون بفضل هذه الحكومة بالذهب لعباً وتكادون لا تعرفون له قيمة لكثرته عندكم الا في هذه الازمة الحاضرة التي اصابت العالم كله بمصائبها وويلاتها . وأما في بلادنا فالحكومة فوضى في نظاماتها وقوانينها . فوضى في حكامها ومحاكمها وأحكامها . فوضى في أمنها . فوضى في ظلمها واستبدادها . فوضى في داخليتها وخارجيتها . فمن هذه الفوضى خلت البلاد من عمرانها وأقفرت الاوطان من سكانها وكثر التعدي والبغي

وعاث الحكام في البلاد فساداً وافساداً ولا هم لهم الا النهب والسلب واغراء العداوة والبغضاء بين الناس ليصطادوا في الماء العكر ومطاردة الاحرار الذين ينكرون هذه المنكرات . فقيل لي بربك هل تطيب بلاد لاهلها وهذا شأنها وشأن حكومتها . لذلك هجرنا بلادنا وهاجرنا الى بلادكم والى بلاد غيرها مضطرين مكرهين احتفاظاً بالشرف ومحافظة على الحياة وطلباً للرزق والحرية. وكن على يقين يا بني ان اليوم الذي تعود السعادة فيه الى اوطاننا لا يهجر سورية سوري مهماكان شأنه

فقال الشاب المصري ـ عجيب ؟ دليل معقول ولكن كيف يتفق هذا مع الحكومة الاسلامية والحكومة الدستورية

فأجابه الشيخ السوري ـ حكومة اسلامبه حكومة دستورية اسمان بلا مسمبين . فالاسلام بريء من اعمال حكومتنا والدستور سمعنا به ولم نر له اثراً من الآثار بل اصبحنا بعد عبد الحميد ننشد مع الشاعر قوله

رب يوم بكيت منــه فلما صرت في غيره بكيت عليه

فقال الشاب المصري ـ ما ذا تقول يا عم وحكومتكم هي البقية الباقية من الحكومات الاسلامية الحافظة لبيضة الاسلام وكيف سمعتم بالدستور ولم تروا له اثراً ومجلسكم النيابي لا يزال يسمع الخافقين صونه ولكن كأنكم من طلاب الطفرة والطفرة محال

فابتسم الشيخ السوري وقال.انت واهميابني في كل ما قلت فحكومتنا ليست على شيء من ذلك وانما تدعي انها حافظة لبيضه الاسلام وهي دعوى باطلة . وان راجعت مقالة «الاستقلال الاسلامي» (١) تر الادلة الكافية فيها على بطلان هذه الدعوى . واما انكاري الدستور وآثاره فكل الاعمال في ايامه استبداد في استبداد اشد من استبداد عبد الحميد . ونحن لا نطلب طفرة بل نطلب تدرجاً وهذا التدرج لم يخلق الى الآن . استغفر الله بل خلق للتدرج بنا من سيء الى اسوأومن رديء الى اردأ.وأمامجلسنا النيابي فنحن اعلم منكم بكيفيةوصول رجاله

(١) راجع صحيفة ٧

الى كراسي النيابة فلا تقف يابني ما ليس لك به علم ولا تجادلني في ما اعلمه انا وتجهله انت واحمد الله واشكره انت وقومك على العافية مما ابتلينا به فلكم حكومة وان كانت مطلقة الا انها تسير معكم سير الحكومات الدستورية في كل شأن من شؤونها . فنحن نغبطكم عليها ونتمنى ان تكون لنا مثلها حكومة عاقلة رشيدة معمرة للدار والديار . وان اردت ان ابين لك الفرق بين الحكومتين والفرق بين حال القطرين الشقيقين تفصيلاً لا اجمالاً ففي الاجتماع الثاني اقدم لك على ذلك الدليل الملموس والبرهان المحسوس والآن وقد غربت الشمس فدعني اقدم الى الله مكتوبة المغرب.فقام الشاب المصري وصافحه مودعاً على ان يعود اليه في الاجتماع الثاني وبعد ان غاب الشاب عن بصره قال رب هب لمثل هؤلاء الشباب رشداً يدركون به مقدار نعمتك عليهم وعلى بلادهم ليعرفوا مقدار ما نحن فيه من الويلات والمصائب اذ

لم يدر طعم الفقر من هو في غنى ومصحح الاعضاء ليس كمن بلي

ثم قام الشيخ الى صلاته وعدت انا ادراجي بعد ان عقدت العزيمة على حضور الاجتماع الثاني

الامن العام

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما في هذا الاجتماع على الامن العام هنا وهناك فقال الشاب المصري :

وعدتني يا عم في الاجتماع الاول ان تفصل ما أجملت في حديثك فهات م عندك ولكن موضوعنا اليوم المقابلة بين أمننا وامنكم لنرى أي الامنين اعز جانباً اذ على الأمن يتوقف عمران البلاد وخرابها وتأخر الامم وتقدمها وعز الدول وذلها . فقال الشيخ السوري :

صدقت يا بني في ماقلت عن الامن ولكن ان أردت ان أقابل بين الامنين ف

القطرين اوحى اليّ ذلك الشاعر قوله

اذا أنت فضلت امرأً ذا نباهة على «خامل» كان المديح من النقص
ألم تر ان السيف ينقص قدره اذا قيل ان السيف خير من العصي

فشتان ما بين امننا وامنكم لان الاشقياء في بلادنا أصبحوا اصحاب الحول والطول والكلمة النافذة القول قولهم والامر امرهم والنهي نهيهم لا راد لقضائهم ولا مانع لمقاديرهم . لا يقيمون للحكومة وزناً ولا يرهبون سطوتها ولا يخشون جانبها يقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويقطعون الطرق وينهبون ابناء السبيل ويقطعون الاشجار او يتلفونها ويقلعون المزروعات او يحرقونها ويسرقون المواشي والانعام او يبقرونها ويضربون الضرائب على الاغنياء فيدفعونها لهم طائعين او مكرهين والويل لمن وقف في سبيلهم او عارض لهم أمراً او نهياً فلا يكون جزاؤه الا الموت وخراب البيت . فقال الشاب المصري :

اراك تبالغ يا عم في وصف تعس بلادكم مما تلاقيه من اشقيائها ومجرميها فالبلاد التي لا حكومة لها لا يمكن ان يكون للاشقياء والمجرمين فيها هذا الشأن وهذه الصولة والسطوة . فماذا تعمل الحكومة اذاً امام هذه الروايات الشنيعة والمناظر السيئة ؟ فقال الشيخ السوري :

والبلاء كل البلاء من الحكومة وعملها فلا ترمني يا بني بالمبالغة ايضاً ان قلت لك ان الحكومة وقوانينها واعمال موظفيها تشجع الاشقياء على شقاوتهم والمجرمين على اجرامهم . لا ترمني بالمبالغة ان قلت ان الحكومة بجبنها ودناءة موظفيها تعلم الاشقياء والمجرمين الجرأة والاقدام على الموبقات والمنكرات . وان قلت كيف ذلك مثلت لك هذه الرواية الصغيرة الآتية

يغيظ زيد او أحد أقاربه عمراً أو احد اقارب عمرو لسبب تافه او غير تافه فيحمل عمرو او قريبه بندقيته وسيفه ويترصد لغائظه او لاحد أقاربه فاذا صادف منه مقتلاً قتله وذهب في حال سبيله كأنه لم يقتل نفساً ولم يزهق روحاً فاذا لقي في طريقه كرمه قطع أشجاره او زرعه قلعه ان كان قائماً او حرقه ان كان مطروحاً على البيدر (الجرن) واذا وجد بقرته او فرسه او دابته بقرها

وتركها طعمة للوحوش.فاذا رفع امرهذا الشقي الى الحكومة طلبت من الشاكي (١) ان يقدم عرضحالا «معروضا» ويضع عليه اوراق التمغة «٢» ان يسجل عرضحاله في دفتر المحكمة ويدفع رسم التسجيل (٣) ان يدفع لهيئة العدلية «خرجراه» اي أجرة الطريق «٤» ان يدفع رسم الكشف عن المتلوف او المضروب او القتيل «٥» ان يهيء مائدة مما لذوطاب من الطعام «٦» ان يقدم للهيئه شيئاً يرضيها من الاكرامية فيحصل من هذه الرسوم الستة مبلغ لا يقل عن عشرة جنيهات.ومن اين للفقير مثل هذا المبلغ وهوفي مأتمه على قريبه او في حزن على خراب بيته . قل انه تجلد وباع ما يملكه ودفع هذه الرسوم الستة فماذا تفعل هيئة العدلية بعد ذلك ؟ تضبط الدعوى فقط وتعود من حيث اتت . وان نشطت لتعقب الجاني وضبطه تبعث عليه كوكبة من فرسان الجندرمة فتنزل في بيته او بيوت اقاربه او جيرانه او اهل بلده تطلب العلف النفي لخيلها واللحم الدسم او الدجاج السمين والدخان الجيد لرجالها والفرش الوثير لعسكرها والاكرامية العظمى لضباطها فاذا قصروا في اداء شيء من هذه الطلبات أدار العسكر ايديهم في البيوت نهباً وسلباً وشغلوا كرابيجهم في الاجسام جلداً وضرباً. ويبقى الحال على هذا المنوال حتى يأخذ الضابط ثمن (الارتفاع) فيأخذه ويعود بعد ان يقول فتشت على الجاني (بالابرة والفتيلة) فلم اجده مع ان الجاني هو الذي كان يقدم له الطعام ويسقيه القهوه ويصلح له محل النوم

هذه الرواية الصغيرة تشرح لك حالة الامن في بلادنا وتمثلها تمثيلاً محسوسا فماذا تنتظر بعد ذلك من المجنى عليه او من اهله ؟ وماذا تكون حالة الجاني يا ترى ! الا ترى ان المجني عليه او اهله يعمدون الى اخذ الثأر من خصمهم بأيديهم ان كانوا يقدرون عليه او يستكينون للذل والخضوع للمعتدي عليهم ان لم تصل اليه ايديهم ؟ الا ترى ان الجاني يسترسل في جناياته وجرائمه ما دام يقدر على القيام باكرام ضباط الجندرمه اذا جاءوا لتعقبه . نعم هذا هو الحاصل وهذا هو الواقع فهل ترى والحالة هذه امناً عندنا يعمر البلاد ويرفع شأن الامه ويعزز مكان الدولة ؟

على انهناك ما هو ادهى وامر . يقوم شقي جريء ويؤلف عصابة على شاكلته ويأخذ في نهب ابناء السبيل وسلبهم وقتلهم ويضج الناس في كل جهة من اعمال هذه العصابة وشرورها وتسمع الحكومة هذه الضجة وتملأ اذنيها اخبار اولئك الاشقياء فلا تحرك ساكناً لقطع دابرهم واراحة الناس من فظائعهم وجناياتهم بحجة انه لم يأتها شاك يشكو لها ما اصابه من اعمال تلك العصابة ولكن ان جاءها الشاكي قالت له هات شهودك . . . واين هم الشهود الذين يشهدون على هذه العصابة ؟ وهل حقيقة ان الحكومة لم يقعدها عن تعقب هؤلاء الاشقياء الا عدم شهادةالشهود؟وهل هي تطلب الشهود من كل شاك او من شاك دون شاك؟

قامت عصابة بقيادة شقي من عائلة عبد الهادي في قضاء جنين وقطعت الطريق بين جنين ونابلس وبني صعب وبين جنين وحيفا وعكا والناصرة ونهبت وسلبت وفعلت كل منكر وارتفعت اصوات الشكوى من فظائعها من كل فج عميق وحكومة نابلس وحكومة عكاء واقفتان امام هذه الاصوات الشاكية وقفة المتفرج الذي لا يعنيه من الامر شيء وكلما شكا اليهما شاك قالتا له هات شهودك

• وفي يوم من الايام تعدت هذه العصابة على جماعة من الالمان كانوا مسافرين بين جنين وحيفا وهناك قامت القيامة وانتصب الميزان وقام متصرف نابلس بقوته ومتصرف عكاء بقونه ونزلت القوتان في دار حافظ باشا عبد الهادي في جنين وطفق المتصرفان يتذللان امام الباشا ويثيران نخوته الوطنية وغيرته العثمانية ليساعدهما على القبض على مدير العصابة واقسما له بشرفهما وشرف السلطان انه لن يصيبه سوء بل يستصدران له ارادة سنية بالعفو عن جرائمه وجناياته وبهذه الحيلة جاء مدير العصابة وسلم نفسه وهو الان رهين السجن

ومن هذه الحكاية تعلم يا بني ان قعود حكومتنا عن تعقب الاشقياء لم يكن لعدم شهادة الشهود بل لعجزها وعجز رجالها عن الوقوف في مثل هذه المواقف اما خوفاً من الخطر واما لحاجة في نفس يعقوب . لذلك تراها لاهية عن العصابات غافلة عن جرائمها وجناياتها ما دامت واقعة على الوطنيين واما اذا وقعت على اجنبي فهناك ترى الحكومة قائمة قاعدة مرغية مزبدة عزيزة ذليلة الى

ان تأخذ للاجنبي بثأره من الوطني . فهذا شأن امننا وحكومتنا في بلادنا فهل شأن امنكم وحكومتكم في بلادكم مثل هذا الشأن المخزي المعيب ! فقال الشاب المصري:

حقاً يا عم لم اكن لاتصور ان حالة بلادكم وصلت بكم الى مثل هذه الدرجة من التعس والشقاء فبلادنا وان كانت لا تزال تشكو من حالة الامن العام فيها الا ان شكواها هذه من قبيل الشكوى من عدم الحصول على الكماليات . ففي بلادنا لصوص واشقياء وعصابات وقطاع طريق ولكنهم لم يجدوا من حكومتنا عشر معشار ما يجده امثالهم في بلادكم من حكومتكم فاذا جنى الجاني او قتل القاتل فلا ترهق حكومتنا المجني عليه بالرسوم الستة التي ذكرتها بل يكفي ان يقدم اليها بلاغاً على ورقة بيضاء او بالمشافهه او بالتلفون حتى تقوم الادارة والنيابة بخيلها ورجلها لتعقب الجاني وحده اقول وحده حتى لا يتبادر الى ذهنك ما يحصل في بلادك من تكليف اهله أو اقاربه او جيرانه أو أهل بلده شربة ماء فضلاً عن العلف واللحم والدجاج والدخان والاكرام فهنا لا يحصل شيء من ذلك بل يبثون على الجاني العيون والارصاد في كل زمان ومكان حتى يقبضوا عليه ويودعوه السجن . وان سمعت الحكومة بعصابة تعيث في الطرق فساداً تسوق عليها قوة تطاردها وتتعقبها ولا تعود عنها حتى تقبض عليها أو تشتت شملها

ولم تكتف حكومتنا بهذا فقط بل جعلت لتأديب الاشقياء الذين لم يجد القانون طريقاً لعقابهم وتأديبهم طرقا أخرى خففت شيئاً من وطأتهم الثقيلة ودفعت عنا كثيراً من شرورهم وتعدياتهم وذلك كمحاكم النفي الاداري ومراقبة البوليس السري لهم ليلاً ونهارا وعندنا عمد ومشايخ يساعدون الحكومة في معرفة الجناة والاشقياء والقبض عليهم في بلادهم وعليهم مسئولية ان قصروا في اداء هذه المهمة . وفي كل قرية خفراء يعاونون العمد والمشايخ في حفظ الامن في القرى . وحقيقه ان حكومتنا لم تدع سبيلاً لحفظ الامن في قطرنا الا سلكته ولكن وسطنا وظروف زماننا ومكاننا لم تصل بنا الى الغاية التي تسعى

اليها الحكومة في حفظ الامن العام حفظاً لا يدع معه شكوى للشاكين ولا طريقاً للمعترضين والكمال لله وحده . فقال الشيخ السوري :

الحمدلله الذي هداك يا بني الى الصواب حتى عرفت الحق من الباطل وقدرت ما نحن فيه من المصائب والويلات وما انتم فيه من الخيرات والبركات . فالى الملتقى يا بني وفي الاجتماع الثالث نبحث في طرق تحقيق الجنايات في بلادنا وبلادكم لترى الفرق بينهما واضحا كالصبح لذي عينين

تحقيق الجنايات

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على تحقيق الجنايات هنا وهناك فقال الشاب المصري :

اراك يا عم حسن البيان قوي البرهان فقد اقنعتني وصرت المس تعس بلادك في امنها كما المس ثوبي هذا بل صرت سريكا لك في سخطك على حكومتك التي صبت هذه المصائب على رأس اختنا سورية وأصبحت في شوق الى معرفة تحقيق الجنايات في تلك البلاد وعسى ان لا يكون هذا النحقيق من البلايا والرزايا التي حافت بكم من كل جانب . فتنهد الشيخ السوري وقال :

كل اعمال حكومتنا في بلادنا بلية في بلية ورزية في رزية ومصيبة في مصيبة فتحقيق الجنايات في بلادنا يا بني يضحك احياناً ويبكي احياناً اخرى . يضحك لانه الاعيب صبيان وأحاديث اطفال لا ينطبق على عقل ولا منطق . ويبكي لانه من العوامل الكبرى في خراب الدار والديار ومن الاسباب القوية في ايجاد الفتن والمشاكل فى القرى ومن الاسلحه الماضية بيد الاشرار للقضاء على شرف اصحاب المنزله والاعتبار ومن الامراض المستعصية في جسم هيئتنا الاجتماعية . فمن تحقيق الجنايات كثر التزوير وساد المزورون . ومن تحقيق الجنايات ضاعت الحقوق وأهينت الكرامات وذهبت الثقة بالتعامل والمعاملات . ومن تحقيق

الجنايات تمكن الشقاق من قلوب الجماعات والعائلات . ومن تحقيق الجنايات ذل العزيز وعز الذليل . ومن تحقيق الجنايات ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب احد في هذه الديار . فقال الشاب المصري :

ما لي اراك يا عم تخرج من مغالاة الى مغالاة ومن مبالغة الى مبالغة فهل انت شاعر تسمعني ما يوحى اليك به الخيال او ماذا ؟ فكيف يكون تحقيق الجنايات في بلادكم كما وصفت او كيف يكون تأثيره فيكم كما قلت ؟ فقال الشيخ السوري :

لا مغالاة ولا مبالغة ولا شعر ولا خيال يابني بل حقيقة ثابتة يلمسها كل سوري او كل من استوطن سورية ورأى او سمع بتحقيق الجنايات فيها ولتكون على بينة من هذا الامر اشرحه لك شرحا وافيا كافيا حتى كأنك تلمسه بيدك كما يلمسه اخوانك السوريون

في كل قضاء هيئه لتحقيق الجنايات وهي مؤلفة من معاون المدعي العمومي والمستنطق وكاتب المستنطق وفي كل ولاية هيئه للاتهام وهي مؤلفة من رئيس المحكمة الابتدائية وعضوين من اعضائها وكاتب من كتابها فالهيئة الاولى تتولى تحقيق الجنايات في القضاء . والهيئة الثانية تشرف على تحقيق الجنايات في كل اقضية الولاية وتنظر فيها فان كانت ناقصة اعادتها لتكميل النقص وان كانت مستوفية فاما ان تبرىء واما ان تحول الدعوى من جناية الى جنحة واما ان تتهم بالجناية . فاذا حدث حادث جنائي في القضاء انتقلت هيئة العدلية فيه الى محل الحادث بعد ان تستوفي الشروط الستة التي ذكرتها لك في الاجتماع الماضي وتأخذ في التحقيق ولكن اتدري كيف يكون تحقيقها

تسمع دعوى المدعي وشهادة شهوده سواء كانت حقاً او باطلا معقولة او غير معقولة حضر المتهم او لم يحضر ومتى طابقت الشهادة الدعوى ختمت التحقيق و«ظنت» بالجناية وهنا مجال للمستنطق للبيع والشراء فان ملأ كفه بالاصفر والابيض من المتهمين «ظن» عليهم بالجناية من دون توقيف وان لم يأخذ منهم او اخذ من خصومهم اكثر مما اخذ منهم «ظن» بالجناية مع التوقيف ومعنى التوقيف الايداع في السجن حتى تنتهي الدعوى من الاتهام والمحكمة . وسواء

كان هذا او ذاك يكتب قراره في ذيل التحقيقات ويظن بالجناية ويلف اوراقه ويبعث بها الى هيئة الاتهام وهذه ان قبضت من المتهمين برأتهم او حولت الدعوى من جناية الى جنحة وان لم تقبض منهم او قبضت من خصومهم ذيلت قرار المستنطق بقرار الاتهام من دون ان ترى متهماً او مدعياً او شاهداً وتصحب قرارها هذا بأوراق «الاخذوكرفت» ومعنى الاخذوكرفت القبض على المتهمين احياءً او امواتاً وايداعهم السجن حتى تفصل المحكمة في امرهم فان لم يسلموا انفسهم وفروا تصادر املاكهم وتسقط حقوقهم المدينة

قلت لك ان هيئة العدلية في الاقضية تسمع دعوى المدعي وشهادة شهوده سواء كانت حقا او باطلا معقولة او غير معقولة. ومثال ذلك ان بكراً يعتدي على خالد فينهب دابته او بيدره او يقطع كرمه او يحرق زرعه او يسرق ماشيته او يشهر السلاح عليه او يقتل ابنه او ابنته فاذا شكاه خالد اسرع هذا وقابله بدعوى زورية فيدعي عليه وعلى عشرة او عشرين او مئة او اكثر من اقاربه بأنهم ركبوا خيلهم وتقلدوا سلاحهم وشنوا الغارة على انعامه وماشيته في المرعى فنهبوها وسلبوها بقوة السلاح وضربوا راعيها ضربات جعلت حياته تحت الخطر او انهم احرقوا كوخه أو بيدره او نزلوا بداره ليلا فسرقوا غلتها او بقرها او حميرها او وقفوا لابنه في طريق سفره فاخذوا منه بقوة السلاح جمله او فرسه وما في جيبه من النقود او اذا قتل قتيل في البراري والقفار قال انهم هم القاتلون

يدعي المزور دعوى من مثل هذه الدعاوي ويستشهد بشاهدين او اكثر من اقاربه او من الذين يشتغلون في ارضه فيشهدون كما يريد فتقبل هيئة التحقيق الدعوبين وتسمع الشهادتين وتضمهما الواحدة الى الاخرى وتسيرهما في طريق واحدة ولا تسمح لنفسها بمناقشة المدعي في دعواه ولا الشهود في شهاداتهم مع انها تعلم حق العلم ان الدعوى الزورية غير معقولة من جهة وأنها ما جاءت الا مقابلة الدعوى الصحيحة من جهة اخرى وتعلم ايضاً ان بين المتهمين زوراً الوجيه والشريف والسري والتاجر والعالم ممن لا يتصور العقل انهم يرتكبون مثل هذه الموبقات وربما تعلم حق العلم ان بعض المتهمين كان وقت الحادثة المدعى

بها في مكان بعيد او بلد بعيد

ومع ان الطبيب الشرعي يقول ان المضروب لم يضرب الا بعصا واحدة وأن القتيل لم يقتل الا برصاصة واحدة ولم يصبه غيرها . ومع ان الخبرين من اهل البلد يعترفون في محضر التحقيق ان المحروق أو المقلوع لم يحرق او لم يقلع الا بفعل فاعل واحد لا بفعل جماعة وان المدعي ادعى زورا وبهتانا مقابلة للدعوى الصحيحه مع هذا كله يعتبر المستنطق الدعوى الثانية كما يعتبر الدعوى الاولى وهيئة الاتهام تتهم الطرفين ان لم تقبض منهما او من احدهما وتوقع الجاني والبريء تحت طائلة عذاب (الاخذ وكرفت)

ومن هذه الحالة فتحت هيئات العدلية في الافضية لها باباً واسعاً من الرزق الحرام كما فتحت في البلاد ابواباً للشر والفساد وميداناً كبيراً للفتن والمشاكل لان فاسدي الاخلاق اخذوا يتطاولون على اقدار اصحاب الاقدار ويمدون ايديهم الى اموال الاغنياء ظلماً وعدواناً ويتحكمون في الناس الضعاف ويحملونهم على تعظيمهم وتكريمهم والدخول تحت طاعتهم في مثل هذه الموبقات المنكرات واذا خالفهم مخالف ادعوا عليه زورا وشهدوا عليه زورا وسلطوا عليه الاخذو كرفت زوراً . ولذلك اصبح الاشرار يتعدون على الاخيار بالقتل او النهب او السلب او الحرق فيصبر الاخيار على تعدياتهم ولو قتلوا ونهبوا وسرقوا وقطعوا الكروم وقلعوا المزروعات وذبحوا المواسي والانعام خوفاً من الوقوف معهم في موقف واحد في الظن والاتهام وبعصبات الاخذوكرف . فهل تراني يا بني بعد ذلك شاعراً سابحاً في الخيال او قائلا حصبه ومقرراً واقعاً ؟ . فقال الشاب المصري :

عجيب ؟ كلما قلت غالى شيخنا وابتعد عن الحصمة ولجأ الى المحال اذا هو بقوه بيانه وقوة برهانه لم يبتعد عن الحقيقة قيراطاً ولم يعرف للمحال موضعاً فالحمدلله والشكر لله على العافية مما ابتليتم به يا عم . ففي بلادنا مزورون كما في بلادكم وفي بلادنا اخلاق فاسدة كما في بلادكم ولكنهم لم يجدوا عندنا في النيابات ولا في غرف قضاة التحقيق مجالا لتزويراتهم وفساد اخلاقهم مثلما يجده امثالهم في بلادكم. نزور

المزورون عندنا ويحكمون التزوير الا ان رجال النيابة يحققون معهم ومع شهودهم تحقيقاً يكاد يشق استار الغيب ويدققون في اقوالهم وألفاظهم وحركاتهم وسكناتهم تدقيقاً يظهر الكامن في صدورهم والغاية التي يرمون اليها ويبيحون للمتهم او وكيله ان يحضر التحقيق ويناقش المدعي وشهوده مناقشة تحق الحق وتزهق الباطل. وبهذه الطريقة في التحقيقات لا يتهم بريء ولا يفلت جان. وكثيراً ماخرج المزورون من النيابات بتعثرون بأذيال الخزي والفشل والبريئون يسحبون وراءهم ثوب البراءة والنزاهة

وعلى الفرض والتقدير ان المزورين احكموا تزويراتهم احكاماً خدعوا به رجال النيابة فقضاة التحقيق يعيدون المنافشة مع المدعي وشهوده والمتهم وبيناته ويقدرون الحوادث والوقائع تقديراً مبنياً على المحسوس الملموس فلا يحيلون متهماً الى محكمة الجنايات الا اذا كانت تهمته لاصقة به لصوق جلده بجسمه. فهذا شأن تحقيق الجنايات في بلادنا فتراه لا يجرىء فاسداً على فساده ولا شفياً على شقاوته ولا يذهب بكرامة اصحاب الكرامات والحيثيات ولا يهين شرف اصحاب الشرف فلله الحمد من قبل ومن بعد . فقال الشيخ السوري :

وأنا احمد الله كما حمدته في الجلسه الماضيه على هدايتك يا بني الى الصواب حتى عرفت الحق من الباطل وقدرت ما نحن فيه من المصائب والويلات وما انتم فيه من الخيرات والبركات . فالى الملتقى يا بني وفي الاجتماع الرابع نبحث في طرق تعقب المتهمين بالجنايات في بلادنا وبلادكم لترى الفرق بينهما واضحاً كالصبح لذي عينين

تعقب المتهمين بالجنايات

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على نعقب المتهمين بالجنايات هنا وهناك فقال الشيخ السوري :

موضوع بحثنا اليوم يا بني نعقب المتهمين بالجنايات في بلادنا وبلادكم وماذا عسى ان اقول في هذا الموضوع وهو ككل المواضيع في البلاد العثمانية تعس وشقاء وخراب ودمار واستبداد وفساد

فاتني ان اقول ان الدعاوى الزوريه عندنا كثيراً ما تكون بين عائلة وعائلة او عشيرة وعشيرة او بين البلد نفسها فاذا اتهمت هذه الاتهام العائلتين أو العشيرتين او البلد وأصدرت اوراق «الاخذوكرفت» تصبح العائلات والعشائر والبلاد تحت رحمة رجال الملكيه «الادارة» و«جندرمتهم» بل تصبح مزرعة او مرعى خصيباً لهؤلاء الناس فكلما تحركت المطامع الدنيئه في نفوسهم او احسوا بفراغ جيوبهم جمعوا جموعهم وأعدوا عدتهم وقاموا بخيلهم ورجلهم ونزلوا في دور المتهمين وهناك المصيبه وهناك الطامة اذ ينزلون فيها وفي نسائها وأطفالها والمقعدين فيها من العجائز والضعاف صنوف العذاب اشكالا والواناً حتى يقضوا لباناتهم ويسدوا شره مطامعهم . فقال الشاب المصري :

وأي علاقة للنساء والاطفال والمقعدين من العجائز والضعاف في تعقب المتهمين ؟ هل هم متهمون مثلهم حتى يروعوا مثل هذا الترويع ويلقى في قلوبهم مثل هذا الرعب أو ماذا ؟ فقال الشيخ السوري :

لا شيء من ذلك وانما يهرب المتهمون اذا دب دبيب خيل الجندرمه في حارات بلدهم ويلجأون الى البراري والقفار او الى المغاور والكهوف ولا يبقى في بيوتهم الا هؤلاء الضعفاء فان جاءت الجندرمة ونزلت بخيلها على مصاطب البيوت يفعلون بهم كما فعل ويفعل الالمان بأهل بلجيكا هذه الايام فيطلبون منهم الفرش واللحم والدجاج والحمام والسمن والبيض والعلف والدخان وتهيئة الموائد وثمن تحريك الاسنان في مضغ كل اكلة فان قصروا في شيء من هذه المطالب

او لم يقدروا عليها مد الجندرمة ايديهم الى موجودات البيت وأخذوا ما يجدونه فيه من حبوب وزيت وزيتون وسمن وعسل وفراش ونحاس وباعوها بأرخص الاثمان فان لم يكفهم هذا جلدوا وضربوا كل من يقع في ايديهم من اهل الدار أو أقارب أهل الدار فان لم يجدهم ذلك نفعاً فعلوا امثله مع الجيران وجيران الجيران اومع البلد كلها حتى ينالوا ما يريدون ويقضوا ما يشتهون وهكذا يزدادون كل يوم فظاظة وفظاعة وقسوة وشدة الى ان يأخذ القائمقام نصيبه من مال السحت وضابط الجندرمة حظه من اموال الفقراء والمساكين . وكثيراً ما خربت بيوت عامرة في تعقب المتهمين ورهنت اراض وحلى نساء او بيعت سداً لشره المعقبين وارضاءً للمتصرفين والقائمقامين والمديرين بل كثيراً ما هتك ستر عائلات وتبدد شمل جماعات من فظائع الجندرمة وضباط الجندرمة . فقال الشاب المصري :

اعوذ بالله من هذا التعس وهذا الشقاء فوالله لو نزل بعض ما نزل بكم على الجبال لدكها او على النجوم لنثرها او على السماء لفطرها او على الارض لزلزلها واخرج اثقالها فما هذه الحال وما هذه المصائب وكيف صبرتم الى الآن وانتم ذلك الشعب الذي لا يقيم على ضيم ولا يرضى بذل فأجهش الشيخ السوري بالبكاء وقال :

نعم كنا ذلك الشعب وكنا بتلك الاخلاق ولكن طبائع الاستبداد يابني ذهبت بالفاضل من اخلاقنا وقضية «فرق تسد» مشت بنا الى الوراء وأرجعتنا القهقري فالمستبدون بنا فرقوا بين عناصرنا وطوائفنا حتى جعلوها متفرقة الكلمة مختلفة في الجزئيات قبل الكليات فباتت تنظر الى بعضها البعض كأن كل واحدة منها من طينة غير طينة الاخرى او كأنها قائمة امة في قلب امة ولم يكفهم هذا حتى فرقوا بين عائلاتنا وعشائرنا فاصبحت العائلة الواحدة في البلد الواحد شتى في المذاهب والمشارب والآراء بل اصبح الاخ يكيد لاخيه وابن العم او ابن الخال يبحث عن حتف ابن عمه أو ابن خاله بظلفه . لذلك يمكنني ان اقول لك ان هذه الدعاوى الزورية التي مر بك حديثها وحديث فظائعها واقع اكثرها بين ابناء العمومة او بين ابناء الخؤولة او بين الاصهار فماذا ترجو بعد ذلك من شعب استبد به المستبدون

الظالمون مثل هذا الاستبداد الذي جعله شعوباً وقبائل وأمماً لا لتتعارف بل لتتناكر وتتدابر وتتقاطع يناجز بعضها بعضاً ويقاتل بعضهم بعضاً ولو بقي شعبنا حافظاً لاخلاقه التي يحفظها التاريخ له لما قام للظالمين في بلاده دولة ولا تمكنت حكومة المستبدين من هذه الفظائع والمنكرات

يقول المثل العربي «يفعل الجاهل في نفسه ما لا يفعله العدو في عدوه» وكأني ارى هذا المثل منطبقاً على حكومتنا من جميع الوجوه في جميع اعمالها ولا سيما في اعمال تعقب المتهمين بالجنايات فهي تعلم وموظفوها كباراً كانوا او صغاراً يعلمون ان ٩٩ في المئة من المتهمين بالجنايات اتهموا زوراً وبهتاناً وتعلم ايضاً ان هؤلاء المظلومين يفرون من تعقبات الجندرمة فرار الشاة من الاسد وتعلم ايضاً وأيضاً ان على هؤلاء المتهمين مدار صلاح الارض او فسادها وان على صلاح الارض او فسادها صلاح مالية الدولية او فسادها فاذا وقعت عائلة او عشيرة او بلد تحت طائلة عذاب الاخذوكرفت يمضي افرادها اكثر اوقات السنة هاربين مختبئين ويتركون ارضهم قاحلة ما حلة لا يستفيدون منها شيئاً ولا يفيدون الدولة بأعشارها وضرائبها فتخسر الخزينة من جراء ذلك الاموال الطائلة والمبالغ الباهظة . وكثيراً ما حدثت بهذه الحقائق المتصرفين والقائمقامين فلم الق منهم اذناً مصغية لانهم من الناس الذين بقولون « نفسي وبعدي الطوفان» اي ما دام هؤلاء يستدرون من المتهمين الليرات والمجيديات من وقت الى وقت فلا يهمهم بعد ذلك خربت الخزينة او عمرت عاشت الدوله او ماتت نهضت الامة او انحطت .

ولا اقول هذا رجماً بالغيب فقد شاهدت قرى كثيرة وقعت تحت عذاب الاخذوكرفت شهوراً وسنين وشاهدت اهلها يتركون ارضهم وأشجارهم ومزروعاتهم تحت رحمة الطبيعة ويهيمون على وجوههم في البراري والقفار وينامون في المغاور والكهوف كلما رأوا شبحاً من اشباح الجندرمة يلوح في جهة بلدهم او جهة منازلهم فتتعطل الارض عن النماء والاشجار عن الثمار والمزروعات عن الحاصلات والاموال الاميريه تتراكم على اصحابها السنة بعد السنة حتى

تصير عبئاً ثقيلا لا يستطيعون ان يقوموا به فهل ترى حكومة مثل حكومتنا تفعل بشعبها وبنفسها مثل هذه الافعال المخربة المدمرة والقاضية على كيان خزينة الدولة ؟ وهل ترى شيئاً من ذلك في بلادك من حكومتك؟ فقال الشاب المصري:

لم ار ولم اسمع مثل هذه الافعال والاعمال وأعيذ حكومتنا من هذه الاعمال الشيطانية فتعقب المتهمين في بلادنا لا غبار عليه بوجه من الوجوه لان تحقيق الجنايات عندنا لا يدع سبيلاً للظن بأن المتهم اتهم زورا وبهتاناً حتى ان المتهم نفسه يلمس تهمته بيده ويعلم انه جان حقيقة فلا يفر من وجه الحكومة لان فراره لا يجديه نفعاً ولذلك ترى كثيراً من المتهمين يسلمون انفسهم الى الحكومة ليأخذ قانونها حقه منهم وان فروا وهربوا فلا تروع الحكومة اطفالهم ولا ترعب نساءهم ولا ترهق اهلهم وجيرانهم ولا تدخل بيوتهم الا للتفتيش عنهم فان لم تجدهم فيها رجعت من حيث اتت بعد ان تبت عليهم عيون البوليس السري وأرصاد العمد والمشايخ فان وقعوا في يدها عاقبتهم بما يقضي به القانون وان بقوا فارين هاربين تلت قوله تعالى «ولا تزر وازرة وزر اخرى»

هذه طرق تعقب المتهمين في بلادنا وهذا سلوك حكومتنا في تعقبهم ومطاردتهم فأين الثريا من الثرى ؟ وأين الاعمال المتمدنه من الاعمال الوحشية ؟ عافاكم الله يا عم من هذه البلايا وخفف عن بلادكم هذه الرزايا . وقبل ان نختم هذا الاجتماع اسألك عما اذا كانت اعمال حكومتكم هذه مستندة الى قانون او ان الحكومة تعمل عملها بلا قانون ولا نظام فقال الشيخ السوري :

سواء كانت الحكومة مستندة في عملها الى قانون ام لم تستند فهل ترى في عمل من اعمالها عقلا او منطقاً او مصلحة لها او لبلادها على اني اقول لك ان قانونها غير اعمالها فقانونها يعقب المتهمين بالجنايات هكذا

تخرج قوة من الجندرمة الى بلد المتهمين وهناك تسأل مختارها عن محل وجودهم فان ارشدها اليهم فبها ونعمت والا اخذته هو والامام وذهبت بهما الى دور المتهمين ودخلتها وهما امامها فتفتش في الدور تفتيشاً دقيقاً فاذا لم تجدهم فيها عادت الى مركز الحكومة بعد ان تأخذ مضبطة من المختار والامام تشهد لها بأنها

فتشت عن المتهمين فلم تجدهم

هكذا يقول القانون وهكذا يحرم على الحكومة ان تفعل في دور المتهمين او في دور جيرانهم ما ذكرت لك بعضه ولكن القانون في عرف حكامنا هو ما يملأ جيوبهم ويسد مطامعهم فقانوننا وان كان عتيقاً لا يصلح لزماننا ومكاننا فانه على علاته افضل من اعمال عمالنا واجراءات حكامنا . فقال الشاب المصري :

الحمد لله ثم الحمد لله على ما نحن فيه من الخيرات والبركات والشكر لله ثم الشكر لله على العافية مما ابتليتم به من المصائب والويلات . فقال الشيخ السوري:

على قدر حزني على ما اصاب بلادي من النكبات اسر وأفرح بهداك الى الصواب حتى عرفت الحق من الباطل فالى الملتقى يا بني وفي الاجتماع الخامس نبحث في المحاكم والاحكام في بلادنا وبلادكم لترى الفرق بينهما واضحاً كالصبح لذي عينين

المحاكم والاحكام

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على المحاكم وأحكامها هنا وهناك فقال الشيخ السوري :

علمت يا بني ماذا تفعل هيئات التحقيق في الاقضية وهيئات الاتهام في الولايات كما علمت النتائج التي تنتجها اعمال تلك الهيئات في البلاد واخلاق البلاد ورزق البلاد وخزينة دولة البلاد من الفوضى والخراب والدمار وفقر الهيئتين الحاكمة والمحكومة وتريد الآن أن تعلم ماذا تفعل المحاكم وأحكامها من العدل أو الظلم والعمران أو الخراب والاصلاح أو الفساد . وماذا تنتظر أن تسمعمني عن محاكمنا وأحكامها ؟ هل تنتظر انأقول أنها عادلة معمرة ؟كنت اتمنى ان اقول هذا القول ولكن كيف اقوله والاصفر الرنان هوصاحب الكلمةالنافذة بين جدرانها. ورجالها الذين يتربعون على كراسيها ليسوا الا اخواناً لرجال التحقيق واخداناً لاعضاء هيئات الاتهام . وسوء الادارة ينخر سوسه في عظامها كما ينخر في عظام

سواها من الدوائر الرسمية

تقول هيئات التحقيق والاتهام اننا لا نبحث في شهادة الشهود ولا نقدرها قدرها لان هذا من شأن المحاكم لا من شأننا فالمحاكم في نظرهم اذاً غاية الغايات لاحقاق الحق وازهاق الباطل ونهاية النهايات لكبح جماح نفوس الاشقياء الاشرار وحماية اصحاب الشرف من أن يتلوثوا بالدعاوي الزورية والتهم الباطلة . في مثل هذه المنزلة الرفيعة يضعون المحاكم ولكن منزلتها الحقيقية ليست الا متممة لاعمال هيئتي التحقيق والاتهام في الظلم والخراب والفساد

في كل متصرفية في بلادنا محكمة للجنايات تتألف من اربعة أعضاء والرئيس حامسهم فمتى أصدرت هيئة الاتهام في الولاية اوراق «الاخذوكرفت» تنتهي مهمتها وتبتدىء مهمة محكمة الجنايات في المتصرفية وهذه تبدأ مهمتها بتعقب المتهمين وقد عرفت كيف يعقبونهم وكيف يخربون بيوتهم ويروعون اطفالهم ويرعبون نساءهم والمستضعفين من رجالهم . وعرفت ايضاً نتيجة مهمة المعقبين اي عرفت انهم لا يقبضون على متهم بل يقبضون اموال السحت ورزق الحرام ويعودون ادراجهم ممتلئة بطونهم بالليرات والمجيديات وربما لا يفارقون هذا المرعى الخصيب زيادة عن اسبوعين اذ كلما فرغت جيوبهم من النقود وبطونهم من الخرفان والدجاج اعادوا على المتهمين الكرة بعد الكرة حتى يمصوا دمهم ويتركوا بيوتهم خالية خاوية . وربما اتخذت الحكومة اوراق «الاخذوكرفت» سلاحاً ماضياً تحارب به البلد ان تأخرت عن تحمل مظلمة او دفع اعانة غير مشروعة او اي شيء تطلبه الحكومة منها . فقال الشاب المصري :

وبعد هذا ماذا ؟ هل يبقى المتهمون فارين «والجندرمة» تخرب البيوت وتروع الاطفال وترعب النساء ؟ والى متى تبقى المحكمة تطاردهم وتعقبهم ؟ لماذا لا يسلمون انفسهم الى الحكومة ويستريحون من التخريب والتدمير ؟ ولماذا لا تشرع المحكمة في محاكمتهم وتنظر في قضيتهم وتنهي امرهم . فقال الشيخ السوري :

نعم يبقى المتهمون فارين هائمين على وجوههم في البراري والقفار نائمين في

المغاور والكهوف والمحكمة تبقى معهم على حالها حتى يسلموا انفسهم اليها ولا تشرع في محاكمتهم الا بعد أن يدخلوا السجن كلهم أو بعضهم لأن قانونها يحظر عليها كما تقول ان تنظر في تهمة متهم بجناية ان لم يكن في السجن هو او بعض شركائه.اما سبب فرار المتهمين وعدم مبالاتهم بتخريب بيوتهم وتدميرها فهو طول اجل المحاكمة من جهة وبقاؤهم في السجن ان دخلوه الشهور والسنين تحت رحمة خصومهم من جهة ثانية ويقينهم ان التهمه تنتهي بالبراءة ان اتفقوا مع الخصوم او مع سماسرة المحكمة من جهه ثالثة لذلك يفرون ويهربون حتى يسووا ما بينهم وبين المزورين من المشاكل اما صلحاً على مال او على عبوديه او على سجن اناس يريدون سجنهم منهم او على خروج عما تملك اليدان . او حتى يتفقوا مع سماسرة المحكمة على مقدار ثمن البراءة . فقال الشاب المصري :

لم افهم ما تقول يا عم لان كلامك هذا اشبه شيء بالرموز والطلاسم . كيف يبقى المتهمون في السجن الشهور والسنين ؟ وكيف تنتهي تهمتهم بالبراءة ان اتفقوا مع خصومهم او مع سماسرة المحكمة ؟ وأي دخل لتسوبه المشاكل في المحاكم الجنائية وأحكامها ؟ وما هو الصلح على المال او على العبودية او على الخروج عما تملك اليدان ؟ وما شأن السماسرة في المحاكم والاحكام ؟ كانك تقص عليّ قصص الاولين او تحدثني حديث الغابرين . قرأنا تاريخ القرون الوسطى وتاريخ الغز والمماليك في بلادنا فلم نجد في تاريخ من تلك التواريخ مثل هذه القصص والحكايات . فقال الشيخ السوري :

لا رموز ولا طلاسم يا بني ولم احدثك الا بما هو حاصل وواقع في محاكمنا ولا الومك لاستغرابك هذه الاحادث لانك انت وقومك في عافيه من الله من هذه البلايا والرزايا . ولئلا تبقى غائصاً في لجج العجب والاستغراب اوضح ما حسبته رمزاً وأبين ما رأيته طلسماً فاسمع يا بني ما اتلوه عليك

اما بقاء المتهمين في السجن الشهور والسنين تحت رحمة خصومهم فوضحه ان المحكمه لا تفصل في الدعوى الجنائية الا ان حضر الشهود وسمعت شهاداتهم والشهود لا يحضرون الا بعد ان يأذن لهم المستشهد (بكسر الهاء) بهم . ونطلبهم

المحكمة مراراً وتكراراً فيقال عند كل طلب غائبون مسافرون ومتى عادوا من غيبتهم ورجعوا من سفرهم يحضرون لاداء الشهادة فتمضي الشهور والسنون والمتهم في السجن والمحكمة تطلب الشهود والمستشهد بالشهود يقول غائبون مسافرون ومتى عادوا او رجعوا يأتون فيشهدون . ومعنى هذه المحاولة والمراوغة في تهريب الشهود هو تعذيب المتهمين المسجونين وتهديد اقاربهم حتى يذعنوا لمطالب المزورين ويخضعوا لاوامرهم ونواهيهم واذا لم يذعنوا ولم يخضعوا أو كانوا قادرين على مساومه سماسرة المحكمه بقيت المحاوله والمراوغة الى ما شاء الله او الى ان تنتهي المساومة . واذا لم يقدروا على المساومة وكان المزورون قادرين عليها شهد الشهود بالجناية وحكمت المحكمة بالادانة مدداً تختلف باختلاف المبلغ المقبوض ان كان كبيراً كانت المدة كبيرة وان كان صغيراً كانت المدة قصيرة

هذا هو معنى بقاء المتهمين في السجن تحت رحمة خصومهم ان شاءوا اطالوا مدة سجنهم وان شاءوا قصروها . واما يقين المتهمين بان تهمتهم تنتهي بالبراءة ان اتفقوا مع خصومهم او مع سماسرة المحكمه فبيانه ان المتهمين يزنون مطالب خصومهم فان رأوا انهم قادرون عليها اذعنوا لها وخضعوا وهناك يقدم خصومهم شهودهم الى المحكمة وينكرون شهادتهم فتنتهي الدعوى بالبراءة . وان رأوا انهم غير قادرين على تلك المطالب او رأوا انهم قادرون على مقابلة الزور بالزور ادعوا على خصومهم زوراً واشهدوا عليهم زوراً فيقف الطرفان في موقف واحد امام الحكومه والمحكمه وما يجري على طرف يجري على الطرف الاخر وحينئذ لا يسع الطرفان ان تساويا في التزوير والقدرة على ارضاء المحكمة وسماسرتها الا أن يتصالحا ويتسافطا في الدعاوى فينكر شهود كل منهما شهادتهم فتحكم المحكمة ببراءة الطرفين . وان لم يستطع المتهمون مقابلة الزور بالزور واستطاعوا الاتفاق مع سماسرة المحكمه أكثر من خصومهم اتفقوا ودفعوا ما اتفقوا عليه من المال وحينئذ بتغير سير المحكمه مع الشهود فتأتي بهم ولو اتخذوا نفقاً في الارض يختبئون فيه أو سلماً يهربون بها الى السماء وتسمع شهادتهم وتزيفها

وتحكم ببراءة المتهمين . فهل فهمت الآن يا بني حل ما حسبته رمزاً وعرفت فك ما رأيته طلسماً ؟ بقي عليك ان تفهم وتعرف النتائج التي انتجتها المحاكم والاحكام في بلادنا

قلت لك في الاجتماع الماضي ان الدعاوي الزورية عندنا كثيراً ما تكون بين عائلة وعائلة أو بين عشيرة وعشيرة وهؤلاء اكثرهم من سكان القرى وسكان القرى تغلب عليهم البساطة والسذاجة ولذلك تراهم يلعبون بالجمرة ويحسبونها تمرة وعرف فيهم هذه الخلة اصحاب المطامع من متنفذي المدن فاقتربوا منهم ولبسوا لهم ثياب الاصدقاء وحركوا دولاب الفتنة بينهم ودربوهم على الزور والتزوير وفتحوا لهم ابواباً من المشاكل حتى اذا وقعت واقعة التزويرات بين العشائر والعائلات انقلبوا الى رجال المحاكم ورجال الادارة وعقدوا بينهم العهود والمواثيق على ان يقتسموا بينهم ريع ما اثاروه في القرى من الفتن والمشاكل لهذا ترى في مدن المتصرفيات كثيراً من الناس الذين خلقوا من ابوين فقيرين ونشأوا بلا علم ولا تعليم ولا معرفة صنعة اصبحوا بعد اتفاقهم مع المحاكم والتصاقهم برجال الادارة من اصحاب الاراضي الواسعة بل من أصحاب القرى اصحاب الحل والعقد فيها بل من اصحاب مئات الالوف من الليرات. ولولا بساطة القرويين وسذاجتهم ولولا انحطاط المحاكم واحكامها ولولا ظلم رجال الملكية واستبدادهم . لولا هذا كله لكان هؤلاء السماسرة اصحاب النفوس المنحطة لا يملكون الآن ثمن حذاء او ثمن كساء . لهذا ترى اهل القرى يكدون طول السنة ويكدحون في حرث الارض وزرعها وقلع المزروعات وحصادها وتربية المواشي والانعام وخدمتها ويا ليتهم يخرجون من هذا التعب كما خرج ذلك العاشق القائل

على انني راض بان «اترك» الهوى «واخرج» منه لا علي ولا ليا

بل يخرجون بعد حاصلهم ومحصولهم وهم مثقلون بالديون ولولا شياطين المدن ورذائل المحاكم لكان الفلاح السوري في نعمة من الله وسعة من العيش وهناء من الحياة

وهناك نتيجة اخرى افظع واشنع من النتيجة الاولى وهي ان بعض العائلات

او بعض العشائر او بعض البلاد لا تستطيع ان ترضي خصومها او ترضي المحكمة وسماسرتها لقلة ذات يدها فهذه تنزل عليها المحكمة عقاباً شديداً فتحكم على المتهمين فيها بالسجن احكاماً قاسية وحينئذ تنقلب من جماعة هادئة ساكنة الى عصابة شريرة تقطع الطرق وتنهب السبل وتتلف الاشجار وتقلع المزروعات وتخطف المواشي والانعام وتفعل كل منكر متمثلة بقول القائل «انا الغريق فما خوفي من البلل»

واضرب لك مثلا على هذا برجل من احدى قرى لواء نابلس ترعرع وشب وهو مثال التقوى والصلاح فاتهم يوماً من الايام بقتل رجل وسعى خصومه واتفقوا مع سماسرة محكمة نابلس على ان يحكم عليه بخمس عشرة سنة فحكم عليه بهذه المدة وهنا خلع الرجل عن عاتقه ثوب التقوى والصلاح ولبس ثوب الاشقياء والاشرار وتقلد سلاحه وركب فرسه ووقف في الطريق ينهب ويسلب وبعمل ما يعمله قطاع الطريق الى ان اعلن الدستور العثماني وعفي عن المجرمين يومئذ فخلع الرجل ثيابه الجديدة ورجع الى ثيابه القديمة فماذا ترى يابني في حالنا هذه؟ هل يلومنا منصف ان ندبنا بلادنا وبكينا اوطاننا وتركنا الدار تنعي من بناها؟ وهل ترى شيئاً من ذلك في بلادك ؟ فقال الشاب المصري :

مسكينة اختنا سورية ومساكين اخواننا السوريون فما في تلك البلاد الا ما يحزن القلب ويفتت الكبد وبدعو الى الاسى والاسف والحسرة . ولا ادري كيف قامت لبلادكم يا عم قائمة الى الآن وكل حركة من حركات حكومتكم او عمل من اعمال عمالكم أو ادارة من ادارات موظفيكم يكفي والله لخراب ممالك وسقوط دول وموت امم وهلاك شعوب فوارحمتاه لبك ياسوريه ووا أسفاه على نعسكم يا سوريون ولا يلومكم يا عماه على ندبكم بلادكم وبكائكم اوطانكم الا الحمقى الجاهلون الذين لا يدرون من شأنكم غير ما تذيعه بينهم مأجورو حكومتكم وصنائعها

اما بلادنا فنعيذها بالله من ان يكون فيها مثل هذا التعس وهذا الشقاء فالتزوير في النيابات وفي غرف قضاة التحقيق علمت من شأنه ما علمت في الاجتماعات الماضية ومحاكمنا لا يجد فيها المزورون سلطة مثلما تجدونه في بلادكم والسماسرة

لا يجدون من قضاتنا مثلما يجدون من قضاتكم وقضايا الجنايات لا تقيم الشهور والسنين في قضائنا مثلما تقيم في قضائكم وشهود الزور حضروا او لم يحضروا فلا تأثير لهم في مجرى العدل فالجاني يعاقب على جنايته والبريء يبقى له شرفه وكرامته ومتنفذو المدن عندنا لا يستطيعون ان يفعلوا في القرى مثلما يفعله متنفذو المدن عندكم فسيف قانوننا وسيف حكومتنا مسلولان على رقبة كل جبار عنيد . فالحمدلله ثم الحمدلله على ما نحن فيه من الخيرات والبركات والشكر لله ثم الشكر لله على العافية مما ابتليتم به من المصائب والويلات. فقال الشيخ السوري:

بمقدار حزني على بلادي وعلى ما اصابها من النكبات والعثرات اسر وافرح لانك عرفت الحق من الباطل فالى الملتقى يابني وفي الاجتماع السادس نبحث في حكامنا وحكامكم لترى الفرق بين الفريقين واضحاً كالصبح لذي عينين

الحكام

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على الحكام هنا وهناك فقال الشيخ السوري :

الحكام في البلاد التي اسعدها الله يا بني لا يلون الحكم ولا يتربعون في مناصب الحكومة الا اذا كانوا على علم بأخلاق اهلها وعلى بينة من عاداتهم وطبائعهم وعلى معرفة من لغاتهم ولهجاتهم وعلى اطلاع تام من القوانين والنظامات وعلى جانب عظيم من الاخلاق الفاضلة والاخلاص للدوله والامة وعلى حظ كبير من التجارب والاختبار وعلى حرية مطلقة في اعمالهم وأفعالهم ضمن دائرة النظام والقانون . هذا شأن الحكام في الحكومات الراقية والامم الناهضه . وأما شأن حكامنا في حكومتنا وبلادنا فكثيراً ما يكونون على النقيض من ذلك

انظر يا بني الى الرجال القابضين على ناصية الدوله الآن فلا تكاد ترى بينهم وزيراً استوفى شرطاً من هذه الشروط فأكثرهم جاهل باخلاقنا وعاداتنا جاهل بطبائعنا ولغاتنا جاهل بقوانيننا ونظاماتنا محروم من الاخلاق التي تؤهله

لمنصب الوزارة قليل الاختبار عديم التجارب لذلك اضطرب حبل الدولة واختلت دفة سفينتها فأصبحت الدولة بوزارة اولئك الناس الى الموت والهلاك اقرب منها الى الحياة والنجاة كما اصبحت الامة

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

وماذا تنتظر بعد ذلك ان يكون عمال الولايات والمتصرفيات والقائمقاميات الا ان يكونوا مرآة لرجال الوزارة في الاخلاق والعادات والعلوم والمعارف والاختبار والتجارب

جلت في سوريه بعد الدستور كثيراً واجتمعت بولاتها ومتصرفيها وقائمقاميها كثيراً وحدثتهم كثيراً واختبرتهم كثيراً ودرست اخلاقهم وأعمالهم كثيرا فرأيت الولاة والمتصرفين لا يخرجون عن سته رجال (١) اما رجل وطني امين خبير نشيط نزيه عفيف يشعر بأمراض الامة ويعرف دواءها ويتقد غيرة وحمية على خيرها وسعادتها ولكن طبيعة الاستبداد وشكل الحكومة والبيئه لا تمكنه من تحريك اصبعه للعمل لحياة البلاد (٢) واما رجل يشارك الاول في اكثر اوصافه الا انه ضعيف القلب ضعيف الارادة خائر العزيمة يكتفي من وظيفته بقبض الراتب ومسح الشارب (٣) واما رجل خبيث الطبع فاسد الفطرة لا يهمه وطن ولا امة بل تهمه شهوات نفسه ورغائب ذاته واملاء جيبه بمال السحت ورزق الحرام فتراه لا يمر عليه وهو في منصبه بضعة ايام حتى يعمل لتأبيد قضية «فرق تسد» فيثير في البلاد الفتن والمشاكل ويغري بين العائلات والعشائر العداوة والبغضاء ويعلم الناس الزور والتزوير وتلفيق الدعاوي الباطلة حتى يكون من امرهم ما علمته من الاجتماعات الماضية (٤) واما رجل يجلس على كرسي وظيفته كما تجلس الببغاء في قفصه فلا يتكلم الا كما يتكلم من حوله من حاشيته ومعيته (٥) واما رجل يجلس على كرسيه كما يجلس الصنم على قائمته فيديره الوجهاء والمتنفذون كما يريدون ويشتهون فلا يشعر ولا يحس بما يجري حوله من المظالم والمغارم وسوء الادارة بل يكتفي بسماع الفاظ التسبيح والتحميد والتمجيد (٦) واما رجل مجنون يخلط في عمله ويخبط في تصرفاته خبط عشواء فيسيء ويحسن

في وقت واحدوهولا يريد اساءة ولا احساناً.فبينا تراه يعمل في وقتللخراب والدمار تراه في وقت آخر يعمل للمصلحة العامة وحياة البلاد . وبينا تراه في موطن يرتكب جرمالرشوة تراه في موطن آخر عفيفاً نزيهاً. وبينا تراهفي مكان يقرب المتنفذين ويفتح اذنه لسعاياتهم تراه في مكان آخر ينفر منهم ويطاردهم مطاردة عنيفة شديدة وهكذا تراه متقلباً في اعماله متلوناً فياطواره «يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً»

هذا شأن ولاتنا ومتصرفينا وأما شأن قائمقامينا فانهم عبيد للولاه والمصرفين يؤمرون فيأتمرون وينهون فينتهون وافقت الاوامر والنواهي القوانين والنظامات ام لم توافق لان بقاءهم في مراكزهم او عزلهم منها متوقفان على رأيمتصرفيهم وولاتهم لذلك ان كان الولاة والمتصرفون اتقياء كان القائمقامون انضاء وان كان اولئك اشقياءكان هؤلاءاشقياء والخطر كلالخطر على البلادوأهلها منشقاوة القائمقامين لانهم مجربون مدربون من جهة ومباشرون لتنفيذ الاوامر والنواهي من جهة ثانية وملتصقون بالاهلين اكثر من غيرهم من جهه ثالثه

فقال الشاب المصري :

سامحني يا عم ان قلت اني في ريب من حديثك هذا . اليكن لكم قانون لتعيين الموظفين وعزلهم ؟ الم تشعر الحكومة بان مثل هؤلاء الموظفين يضرونها ويضرون بلادها ؟ الم تسمع شكواكم ان شكوتم لها موظفاً من هؤلاء الموظفين ؟ وان شكوتم ألا نرسل المفتشين والمحققين يفتشون ويحققون؟

فضحك الشيخ السوري حتى كاد يستلقي على قفاه وقال :

في كل مرة تشك وترتاب يا بني في حديثي . الا اني اعذرك ولا اعذلك لانك انت وقومك في عافية من الله من هذه البلايا والرزايا . نعم ان لنا قانوناً ولكن لا قيمة له في نظر حكومتنا . وحكومه الاستانة تعلم كل ما يجري في الولايات والمتصرفيات وتشعر بأن موظفيها يضرونها ويضرون بلادها ونشكو فلا تسمع شكوانا وان ارسلت المفتشين والمحققين فلتأييد العمال والموظفين ومشاركتهم في المنهوبات والمسلوبات

يقول القانون ان الوظائف لا تعطى الا لاهلها من اهل الخبرة والدراية والحكومة تسديها الى غير اهلها وتعطيها لمحاسيبها وصنائعها . ويقول القانون ان كل موظف حر في وظيفته ولا سلطة لرئيسه عليه الا ان خالف النظامات والقوانين والحكومة سلبت حرية الموظفين وجعلتهم آلة متحركة في يد رؤسائهم والقانون يقول لا يعزل الموظف من وظيفته الا بذنب تحكم به المحاكم النظامية او الادارية والحكومة تعزل الموظفين بلا محاكمة بل بحسب الكيف والمشيئة. والقانون يقول لا ينقل موظف الى درجة ارقى من درجته الا ان برهن على كفاءته واستعداده وكان اهلا للترقي والحكومة تنقل الموظف من ادنى الى اعلى بلا كفاءة ولا استعداد او من اعلى الى ادنى بلا ذنب ولا جريرة . والقانون يقول اذا اذنب الموظف وثبت ذنبه يطرد من وظائف الحكومة ولا يعود اليها والحكومة تعيد المذنب الى وظيفته او الى اكبر منها متى كان محسوباً من المحاسيب او صنيعة من الصنائع او متى كان قادراً على دفع ثمن الوظيفة . هكذا يقول القانون وهكذا تفعل الحكومة فهل ترى بعد ذلك يا بني ان لقانوننا حرمة في نظر حكومتنا ؟ وهل ترى ان اعمالها هذه تنطبق على عقل او منطق او قانون او مصلحة ؟ وماذا تنتظر من الموظفين وهم يرون حكومتهم تدوس القوانين والنظامات ؟ هل تنتظر ان يكونوا قانونيين نظاميين او يكونوا من الفوضى والاستبداد بمكان عظيم ؟

فقال الشاب المصري :

ليت قومي يعلمون حالة الدولة التي علقوا آمالهم بها وتشبثوا بأهدابها وبنوا العلالي والقصور على حياتها. ليتهم يفتحون عيونهم قليلاً ويرفعون ما وضع عليها من الغشاء الكثيف ليروا انهم خائبون في آمالهم وأن تلك الاهداب او هى من بيت العنكبوت وأن تلك العلالي والقصور قامت على شفا جرف هار

فقال الشيخ السوري :

قل يا بني جزى الله سماسرة السوء وصنائع اولئك المخربين المدمرين بما يستحقون لانهم هم الذين خدعوا البسطاء من قومك فلعبوا بعقولهم وأضلوهم سواء

السبيل ولكن لا تيأس ولا تقنط فستذهب هذه السخافات من عقول البسطاء ولا يبقى الا ما ينفع ويفيد . قال الله تعالى «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض»

فقال الشاب المصري :

صدق الله العظيم سيذهب الجفاء ويبقى النافع المفيد فدعنا الآن يا عم من حديث قومنا وأتمم لنا حديث قومك

فقال الشيخ السوري :

اريد ان احدثك يا بني بخمس حوادث شهدتها بنفسي وهي تبرهن لك على صحة حديث الحكام في بلادنا فالحادثة الاولى ان متصرفاً من متصرفي نابلس ضرب ضريبة غير قانونية أضر بها الفقراء والمساكين فشكاه اهل نابلس الى الوالي بأكثر من مئة تلغراف ومئة عريضة ولم يأخذوا جواباً عن شكوى من هذه الشكاوي . وفي يوم من تلك الايام زرت نابلس وسمعت بالحكاية ولما عدت الى بيروت وكنت مستوطنها قابلت واليها وكان يومئذ المرحوم نور الدين بك وقصصت عليه الحكاية فما كان اشد عجبي واستغرابي لما حلف الرجل بشرفه انه لم يعلم بها وللحال جاء بمدير الاوراق وسأله عنها فقال نعم انها موجودة وعندنا مئات الشكاوي من اجلها

كيف لم تصل هذه الشكاوي التي تعد بالمئات الى الوالي ؟ وكيف لم يعلم بها؟ مسئلة شغلت فكري طويلاً الى ان لقيني احد مأموري المعية في الولاية فقال لا تعجب ولاتستغرب فحول الوالي المكتوبجي والدفتردار ومدير الاوراق ولكل من هؤلاء صلة بالمتصرفين والقائمقامين فان جاءت شكوى عليهم خبأوها ولم يعلموا الوالي بها والوالي يعلم ذلك ولكنه لا يفعل بهم شيئاً لاعتبارات كثيرة

والحادثة الثانية اني ذهبت منذ سنتين الى نابلس لتطويب ارض (اي تسجيل عقد بيعها) ومعي وصل بما عليها من الاموال الاميرية عن السنة الاخيرة . ومن العادة او من القانون ان لا يفرغوا ارضاً وينقلوها من اسم الى اسم ما دام على

صاحبها اموال متأخرة من اموال الويركو . ولما احيلت اوراق «الطابو» الى قلم المال احالها هذا الى التحصيلدار (الجابي) ليعطي معلوماته عما يطلب من صاحب الارض من الاموال المتأخرة فبحثنا عنه فوجدناه يجول في القرى للتحصيل فأوقفوا المعاملة الى ان يعود فقدمت لهم وصل آخر سنة فلم يقبلوه لانه في عرفهم لا يسري على ما قبله اي ان التحصيلدار يعطي وصلاً عن مال سنة ١٥ مثلاً وعلى الارض مال سنة ١١ او سنة ١٢ فقلت ان لم تقبلوا هذا الوصل فللمسألة حل آخر فالارض مسجلة بالرهن منذ اربع سنين ولم تسجل طبعاً الا بعد ان اخذ ما عليها من مال السنين السابقة لسنة التسجيل فالمال المطلوب اذاً هو مال ثلاث سنين فيمكنني ان ادفع لكم هذا المال فان ظهر بعد مجيء التحصيلدار انه مالكم فهو في خزينتكم وان ظهر انه مالنا اعدتموه الينا فلم يقبلوا فقلت ان لم تقبلوا هذا ولا ذاك فارجعوا الى دفاتركم القديمة فقالوا ان الدفاتر مع التحصيلدار وليس لها عندنا اصل ولا فصل فقلت واذا مات التحصيلدار او اضاع الدفاتر فماذا يكون من الشأن ؟ فقالوا لا نعلم . تركتهم وذهبت الى المتصرف وقصصت عليه القصة فحلف انه لا يعلم بهذا الامر فقلت واذا كنت لم تعلم قبلاً وعلمت الآن ألا يمكنك ان اصلح هذا الخلل وأنت مسأول عنه فقال ان شاء الله اصلحه والى الآن لم يشأ الله هذا الاصلاح

والحادثة الثالثة ان هذا المتصرف اخرج قوة من الجندرمة لتحصيل اموال متأخرة على جماعة من بلدي فنزلوا في بيوتهم وفعلوا فيها ما يفعله معقبو المتهمين بالجنايات فذهبت وشكوت اليه هذه الافعال البربرية المخالفة للقانون فقال وماذا نفعل والدولة في حاجة الى المال وأهل القرى لا يدفعون ما عليهم الا بفظائع الجندرمه . نعم انا خالفنا القانون ولكن الضرورة احوجتنا الى هذه المخالفة . فسكت هنيهة وقلت لا بأس بذلك ولكني اسألك ان تحمل اهل القرى على فرز الارض المشاعة بينهم وبذلك تقطع من القرى دابر الفتن والمشاكل وتحبب الفلاح بأرضه . فقال المتصرف لا يساعدنا القانون على عمل مثل هذا فلم يسعني الا ان ضحكت طويلاً وقلت تعجباً كيف تحلون القانون وقتاً وتحرمونه

وقتاً . تدوسون القوانين والنظامات في ما ترون لكم فيه فائدة وربحاً . وتحترمونها ان كان في عدم احترامها فائدة وربح للاهلين فوجم الرجل ولم يحر جواباً

والحادثة الرابعة ان قائمقاماً كان في جنين استبد بكاتب المحكمة الاول وأخذه من وظيفته وأرسله مخفوراً الى نابلس بلا ذنب ولا محاكمة فقامت قيامة الناس يومئذ وكان الدستور في ابان شبابه فكف الوالي يد القائمقام وأحاله الى المحاكمة الا ان القائمقام عبد من عبيد الاتحاديين لذلك نقل الى قائمقامية من الصنف الاول بدلاً من قائمقاميته التي هي من الصنف الثالث ولم يطل في الثانية حتى نقل متصرفاً لمتصرفية من الدرجة الاولى

والحكايه الخامسة أن رجلاً قوياً نهب او سرق جمل رجل ضعيف فذهب الرجل الى قائمقام بني صعب وشكا اليه امره فقال له القائمقام اذهب الى فلان الوجيه وفلان السري واشك اليهما امرك وهما يردان اليك جملك فقال ذهبت اليهما ولم يجديانی نفعاً فأجابه القائمقام اذهب اذاً واسرق لخصمك جملاً مثل جملك ولا تزد ولا تنقص

هذه الحوادث الخمس ومثلها مئات والوف ومئات الالوف تدلك يا بني على حالة الحكام في بلادنا وتبين لك علة الفوضى الضاربه اطنابها في اوطاننا . فمن هذه الحالة قامت في البلاد حكومات في قلب حكومة حكومات المتنفذين في مدن الولايات والمتصرفيات وهؤلاء يتحكمون في متنفذي الاقضية كما يريدون. وحكومات المتنفذين في قصبات الاقضية وهؤلاء يتحكمون في اعيان القرى ووجهائها كما يشتهون وحكومات اعيان القرى ووجهائها وهؤلاء يتحكمون في الضعاف الفقراء من اهل القرى فيضربون ويجلدون ويضربون الضرائب ويأخذون الغرامات وينهبون ما في البيوت. فهل ترى يا بني مثيلاً لذلك في بلادك؟ وهل هذا شأن الحكام في حكومتك . فقال الشاب المصري :

لا شيء والحمدلله يا عم في بلادي مما ذكرت وشأن حكامنا في بلادنا كشأن الحكام في اعظم البلاد تمدناً ورقياً وتقدماً . فالجالسون على كراسي وزارتنا من

خيرة رجالنا علما واخلاقاً واخلاصاً ودربة وخبرة وحكام اقاليسنا من نخبةابنائنا ادارة وعقلاً وادباً وحكومتنا احاطت الموظفين بسياج القانون العادل واقامت على هذا السياج الحراس الامناء من المراقبين والمفتشين .فالحاكم الامين أمين على منصبه مادام اميناً على وظيفته ولا يخرجه منه الا ذنب يدينه به مجلس التأديب والموظف النشيط يكفل القانون ترقيه وتقدمه.لذلك ترى الاعمال سائرة في الاقاليم ضمن دائرة النظامات والقوانين ولا حكومة عندنا قائمة في قلب حكومة. وشكاوي المظلومين ليس بينها وبين حكومتنا حجاب . فتلغراف بالشكوى من احقر فلاح في اقصى الصعيد مثلا يقيم الحكومةويقعدها حتى تأخذ بيد الضعيف وتعاقب المعتدي الاثيم.فالحمدلله ثم الحمدللهعلى ما نحن فيه من الخيرات والبركات والشكرللهثم الشكرلله علىالعافية مما ابتليتم به من المصائب والويلات.فقالالشيخ السوري :

وانا احمد الله الفاً واشكره الفين لانك عرفت الحقمن الباطل فالى الملتقى يا بني وفي الاجتماع السابع نبحث في الضرائب وجبايتهافيبلادنا وبلادكم لترى الفرق بيننا وبينكم واضحاً كالصبح لذي عينين

الضرائب وجبايتها

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطيء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على الضرائب وجبايتها هنا وهناك . فقال الشيخ السوري:

اعجبتني ابني كلمةلابن خلدون جاءتفيمقدمته تحتعنوان«الظلممؤذنبخراب العمران» فاحببت ان آتي بها مقدمة لموضوع اجتماعنا هذا . قال ابن خلدون «ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لانهم يرون ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم . واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في الاكتساب . واذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهمعنالمكاسب كسدتأسواق العمران وانتفضت الاحوالوابذعر

الناس في الآفاق من غير تلك الايالة في طلب الرزق في ما خرج عن نطاقها فخف ساكن الفطر وخلت اذياره وخربت امصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان»

حقيقة قررها ابن خلدون من مئات السنين ولمسها وشعر بنتيجتها العثمانيون في جميع الممالك العثمانية كالمسها وتلقى صدماتها الامم المنقرضة والشعوب البائدة فكثرة الضرائب في بلادنا وتنوع اشكالها كل سنة أو كل يوم ذهبت بآمالنا في تحصيل الرزق واكتساب الاموال فانقبضت ايدينا عن السعي في الاكتساب فكسدت اسواق عمراننا وانتقضت احوالنا وتشردنا في الآفاق وخلت اقطارنا من سكانها وديارنا من اهلها وخربت امصارنا واختل باختلالنا حال دولتنا وسلطاننا

أتدري يا بني كم ضريبة ننوء تحت حملها؟ انها تزيد عن عشر ضرائب وكل ضريبة منها تكفي وحدها فضلاً عن جميعها لانقباض الايدي عن السعي في الاكتساب وكساد اسواق العمران. ومن هذه الضرائب ضريبة الاعشار فهذه ترجح مصيبتها جميع مصائب الضرائب بل جميع مصائب البلاد لانها علة العلل في انحطاط الامة والدولة وسبب الاسباب في الفوضى الضاربة اطنابها في جميع المملكة بل لانها جرثومة الخصام بين العشائر والعائلات ورسول الحكام للتفريق وتنبيه الضغائن والاحقاد في صدور الجماعات بل لانها من مخربات الدور وهادمات القصور بل لانها تذل الاعزاء وتعز الاذلاء بل لانها تعطل الارض وتمحلها بل لانها تذهب بمالية الدولة وتفقر خزينتها . فقال الشاب المصري :

ما هذا الكلام ؟ ما هذا الحديث ؟ كأن مصر يا عم خلعت عن عاتقها ثوب العجائب والغرائب ولبسته بلادكم فكل كلامك عجائب وكل حديثك غرائب ولولا قوة برهانك وحجتك وصدقك في لهجتك لعددت كلامك اسطورة من اساطير الاولين وحسبت حديثك اعجوبة من عجائب الغابرين فما هذه الضريبة ؟ وكيف رجحت مصيبتها جميع المصائب ؟ وكيف كانت علة العلل في انحطاطكم وانحطاط الدولة ؟ وكيف كانت سبب الاسباب في الفوضى في جميع المملكة ؟ وكيف كانت جرثومة الخصام ورسول الحكام ؟ وكيف خربت

الدور وهدمت القصور وكيف اعزت الاذلاء واذلت الاعزاء ؟ وكيف عطلت الارض واحلتها وافقرت خزينة الدولة وذهبت بماليتها ؟ . فقال الشيخ السوري:

تعجب يا بني ما شئت واستغرب ما شئت وعد كلامي كما نريد واحسب حديثي باي حساب احببت فانت معذور لانك انت وقومك في عافية من الله من هذه المصائب والنوائب فكلما سمعت مني حديثاً لم يخطر لك على بال ولم يحدث مثله في بلادك تعده عجيباً وتحسبه غريباً ولكن يعزيني عن تعجبك واستغرابك سلامه فطرتك وانصياعك الى الدليل والبرهان وخفض جناحك للحق فاسمع يا بني تفصيل ما اجملته لك عن ضريبة الاعشار لتكون على بينةمن مصائبها وويلاتها فتعذرنا ان شكونا مصائبنا ولا تعذلنا ان بكينا بلادنا وندبنا اوطاننا

يفرض القانون على المزارعين ان يعطوا عشر حاصلات ارضهم كما يفرض على الحكومه اما ان تأخذ هذه الاعشار عيناً ان كانت من الحبوب وتبيعها على حسابها أو تأخذ ثمنها ان كان من الخضر او الفاكهة بعد تقدير المخمنين الامناء لها واما ان تضمنها لمن يريد التزامها في سوق المزاد على شرط ان يكون من اصحاب الكفاءه الماليه.ومعنى هذه الكفاءة ان يكون للملتزم املاك تساوي ثمن ما يريد التزامه من الاعشار أو يكفله من يكون له مثل هذه الاملاك . وسواء كان هذا القانون ضاراً كما هو الواقع أو نافعاً كما يقول له البسطاء فالبحث في ضرره ونفعه لا يفيد الآن مثل ما يفيد البحث في تصرفات الحكام في هذه الضريبة

اذا جاء موسم نضج المزروعات في كل سنة تأتي الحكومة بمختاري القرى ومشايخها والمتنفذين في مدن المتصرفيات وقصبات القائمقاميات وتضع اعشار القرى في سوق المزاد وتطلب لها اثماناً باهظة فان تقدم المتنفذون لالتزامها بالثمن الذي تريده الحكومة انتهى الامر واحيل الى عهدتهم ما يريدون التزامه من اعشار القرى والا قالت الحكومة لمختاري القرى ومشايخها تقدموا واضمنوا اعشار قراكم ولكن كما نريد نحن لا كما تريدون انتم فان قالوا لها خذي اعشارنا عيناً وبيعيها على حسابك كما ينص القانون قالت لهم لا نأخذ منكم عيناً ولا نعرف

بيعاً ولا شراءً فان ابوا عليها ما تريد أخذت في عقابهم وتعذيبهم سجناً وجلداً وضرباً الى ان يوقعوا اختامهم على ما يرضيها . فقال الشاب المصري :

كيف يأخذ المتنفذون الاعشار بالاثمان الباهظة ألا يخافون الخسارة وهم يرجون الربح ؟ وكيف تعاقب الحكومة مختاري القرى ومشايخها وكيف ترغمهم على التزام اعشار قراهم بالاثمان التي لا توافقهم ؟ فقال الشيخ السوري:

اما المتنفذون وأخذهم الاعشار بالاثمان الباهظة فلهم في ذلك حسابان وفي كلا الحسابين هم رابحون لا خاسرون . فاما ان يتفقوا مع مختاري القرى ومشايخها على ان يسامحوهم في اعشار ارضهم الخاصة بهم وباقاربهم أو على شيء من الربح وفي مقابل ذلك يساعدونهم على اخذ ربع حاصلات الفلاح المسكين أو ثلثها واما ان يلجأ المتنفذون الى الحكام وهناك يخربون بيت الفلاحين بطرق يسمونها قانونية

يذهب المتنفذ الى حكومة القضاء ويقول لها سرق المزارعون حاصلاتهم وخبأوها ولم يمكنوني من أخذ اعشارها القانونية فاطلب اليك ان تنتدبي الخبيرين يخمنون حاصلات ارضهم وكرومهم.والخبيرون كثيرون عند الحكومة ممن لا ذمة لهم ولا دين وللحال يقرر مجلس ادارةالقضاء انتداب خبيرين يذهبان الى القريةويقدران ثمن حاصلاتهاويضعان بذلك دفتراًيقدمانه له.ومتى استلم الخبيران قرار المجلس بانتدابهما استلمهما الملتزم وبهر عيونهما بالاصفر والابيض فيضعان دفتر التقدير أو التخمين كما يريده هو لا كما تريده الحقيقة وتقتضيه العدل والانصاف.وان تذمر اهل القريةمن هذا التقدير قالت لهم الحكومة لا تتذمروا فامامكم التمييز فميزوا دفتر قريتكم الى مجلس الادارة ونحن ننتدب عضوين من اعضائه يقدران حاصلاتكم تقديراً قانونياً فيخرج العضوان ويفعلان ما فعله المخمنان يأكلان كما اكلا ويظلمان كما ظلما ويقرران كما قررا وربما يقرران زيادة ان اكلا من الملتزم زيادة . وهنا يصبح ظلم القرية لازماً لازباً لانقض فيه ولا ابرام اذ اصبحت القرية بعد قرار عضوي الادارة ملزمة بدفع ثمن اعشارها كما جاء في دفاتر المخمنين والمميزين.فهل عرفت يا بني كيف يربح المتنفذون من

الاعشار وكيف لا يخسرون.واما عقاب الحكومة مختاري القرى ومشايخها ان لم يذعنوا لارادتها فشنشنة عرفناها من اخزم لا تحتاج تعليلاً ولا بحثاً عنه الاسباب والمسببات

ولا يكتفي المتنفذون بهذه المظالم والمغارم بل يشعلون في القرية نار الفتن والمشاكل والقلاقل فيثيرون الفساد بين العشائر والعائلات ويفتحون في وجوههم ابواب الزو. والتزوير والدعاوي الباطلة لينتقموا منهم اولاً وليصطادوا في الماء العكر ثانياً وحدث عما يحدث بعد ذلك من الظلم والاستبداد والنهب والسلب وخراب البيوت ولا حرج فحدث في البلاد ما عددته اسطورة من الاساطير وحسبته اعجوبة من الاعاجيب . والاعجب من هذا ان ضرر الاعشار يصيب الحكومه نفسها مثلما يصيب الفلاحين ولم تشعر الحكومه بهذا الضرر ولم تحس به الى الآن أو انها تشعر وتحس ولكنها لسوء ادارتها وجهل عمالها وشره حكامها لم تفعل شيئاً لازالة هذا الضرر

قلت ان المتنفذين يلتزمون الاعشار واملاكهم أو املاك كفلائهم تضمنهم عند الحكومة وكثيراً ما اكل هؤلاء المتنفذون اموال الاعشار ولم يدفعوا منها قليلاً ولا كثيراً ولم يفقدوا سيئاً من املاكهم أو املاك كفلائهم لان الناس لايستطيعون ان حجزت الحكومة هذه الاملاك وعرضتها للبيع ان يتقدموا لشرائها اذ لا يمكنهم ان يتصرفوا فيها الا باهراق الدماء وازهاق الارواح وخراب الدار والديار . ولا يمكنهم ان اشتروها ان لا يكونوا معرضين لقرارات المستنطقين بتوقيفهم أو لقرارات هيئآت الاتهام باخذهم احياء او امواتاً الى السجن أو لقرارات المحاكم بسجنهم السنين الطوال لذلك لم ار ولم اسمع ان ارضاً او عقاراً من اراضي وعقارات اولئك الملتزمين أو الضامنين لهم تقدم لشرائها احد من الناس فتتعطل اموال الحكومة ولاتجد الحكومه سبيلاً لتحصيلها من آكليها خصوصاً ان كانوا متفقين مع القائمقامين والمتصرفين فانهم يأكلون اموال الاعشار وهم آمنون مطمئنون من كل مطالبة أو مضايقة في الطلب

ولم يقف ضرر الاعشار بماليه الدوله عندهذا الحد بل تعداه الى تعطيل الارض

عن وظيفتها لان اكثر الناس تركوا اراضيهم بوراً قاحلة ماحلة هرباً من المظالم وفراراً من المغارم فخسرت الدولة بذلك مع الخسارة الاولى ما جعل خزينتها خالية خاوية عاجزة عن ايفاء الموظفين مرتباتهم الشهرية وخسرت البلاد خسارة جعلت مئات الالوف من الاراضي الجيدة معطلة كما جعلت الوف الالوف من الايدي العاملة فقراء لا يملكون قوت يومهم . ومن ذلك تقدم الاستعمار الصهيوني في فلسطين بسرعة اذ جاءها المستعمرون وأهلها زاهدون في ارضهم فبيع فدان الارض الذي يساوي مثله في بلادكم مئتي ليرة بعشر ليرات على الاكثر . فهل ترى تعساً مثل هذا التعس وشقاءً مثل هذا الشقاء وخراباً مثل هذا الخراب وجهل حكومة مثل جهل الحكومة العثمانية ؟ وهل تنكر بعد ذلك ان صدقت كلمة ابن خلدون علينا وعلى دولتنا ؟ هل تنكر ان الظلم مؤذن بخراب العمران ؟ هل تنكر ان ضياع بلادنا وخراب اوطاننا وفقد استقلالنا ناشئة عن مثل هذه المظالم والمغارم ؟ فقال الشاب المصري :

حقيقة ان الظلم مؤذن بخراب العمران وحقيقه انكم يا عم مغلوبون على امركم في بلادكم . وحقيقة انحكومتكم جاهلة جهلاً مطبقاً اذ ان اعمالها وأفعالها في نفسها لا يفعلها العدو العاقل في عدوه فما سمعنا الى الآن ان حكومة من الحكومات الهمجية فضلاً عن الحكومات المتمدنة تخرب خزنتها وتفقر شعبها وتفقر بلادها لتشبع بطون الموظفين ورفقائهم المتنفذين . ولا ادري كيف يرجو اولئك البسطاء لهذه الحكومه المخربة المدمرة حياةاو بقاء وهي تمزق احشاءها واحشاء بلادها بيدها لا ادري كيف ثبتت هذه الدوله في معترك تنازع البقاء الى الآن وهي تتجرع كل يوم هي وبلادها كؤوس الموت الزؤام.فقال الشيخ السوري :

وربما يتبادر الى ذهنك يا بني انهميجبون اموال العشرمن الفلاحين كما يجبونها من المتنفذين الذين يأكلون اموال الحكومه . لم يفعلوا سيئاً من ذلك بل يكيلون الجباية بكيلين كيل المتنفذين وقد علمت امره مما تقدم وكيل المزارعين والفلاحين فهؤلاء ان تأخروا عن دفع الاموال للحكومه او للملتزمين تخرج

عليهم الحكومة فرسان الجندرمة ومشاتهم وينزلون في بيوتهم ويفعلون فيها ما يفعلون في بيوت المتهمين بالجنايات تخريباً وتدميراً ونهباً وسلباً وجلداً وضرباً حتى يضطروهم لبيع ما يملكون من الآنية والماعون والفرش والدواب وقوت اليوم. فهل ترى شيئاً من ذلك يابني في بلادك؟ فقال الشاب المصري:

لم اعد استطيع ان اسمع المقابلة بين بلادي وبلادك يا عم الا ان استطعت ان اقابل بين الثريا والثرى فكل ما في بلادي عمران في عمران وعدل في عدل ونور فوق نور وكل ما في بلادك خراب في خراب وظلم في ظلم وظلمات بعضها فوق بعض. فقومي يسمعون بالاعشار في زمان الآباء والجدود ولم يعرفوها ويتلقى الخلف عن السلف حوادث تلك الجبايات فيحسبونها حكاية من الحكايات الخرافية او قصة من القصص الفكاهية فنحن اليوم في عافية من الله من مصائب الاعشار والمعشرين وفي امان الله من فظائع اطماع المتنفذين وفي حرز الله من فظاظة التحصيل والمحصلين

قدرت حكومتنا قيمة اراضينا ووضعت على حسب قيمتها ما تستحقه من الخراج فمن ٥٠ قرشاً الى ١٦٠ قرشاً يدفع الفدان خراجاً سنوياً ولا تطلب الحكومة هذا الخراج دفعة واحدة بل تجبيه اقساطاً. والجباية عندنا لا خيل فيها ولا فرسان ولا مشاة ولا نهب ولا سلب ولا جلد ولا ضرب ولا خراب ولا دمار بل يأتي صراف المديرية الى القرية عند حلول اجل القسط وينزل في بيت العمدة فيتسابق الفلاحون الى دفع ما عليهم من اموال القسط المطلوب فان ماطل مماطل او راوغ مراوغ حجز الصراف على حاصلاته وضرب موعداً لبيعها فان رجع المماطل عن مطله او المراوغ عن مراوغته ودفع ما عليه من مال القسط قبل حلول موعد الحجز عادت اليه حاصلاته كما هي والا بيعت في المزاد فتأخذ الحكومة حقها وتعيد الباقي الى اصحابها

من هذا ارتفع ثمن الارض في بلادنا فالفدان الذي كان يساوي قبل عهد الاصلاح الف قرش مثلا اصبح يساوي المئة والمئتين من الجنيهات . من هذا عرف الفلاح قيمة ارضه فاقبل عليها يخدمها بنفسه وامرأته واولاده

بعد ان كان يساق اليها بالنيلة والكرباج . من هذا امن الفلاح على ثمن حاصلاته ان تذهب الى جيب غير جيبه أو صندوق غير صندوقه بعد ان كان مثل فلاح بلادكم ليوم لا يناله من كديمينه وعرق جبينه غير لقمة يأكلها وثوب خلق يدفع به حرارة القيظ وبرد الشتاء .من هذا أحب المصري وطنه فلا يفارقه الآن الا للاصطياف في متنزهات اوربا والاستحمام في حماماتها المعذبة . من هذا امتلأ القطر المصري بالسكان والمهاجرين فاصبح احصاؤه زيادة عن اثنى عشر مليوناً بعد ان كان لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة من الملايين . فالحمد لله ثم الحمد لله على ما نحن فيه من الخيرات والبركات والشكر لله ثم الشكر لله على العافيه مما ابتليتم من المصائب والويلات . فقال الشيخ السوري :

الحمد لله الذي هداك يا بني الى الصواب حتى عرفت الحق من الباطل فالى الملتقى يا بني وفي الاجتماع الثامن نتمم حديث الضرائب وجبايتها في بلادنا وبلادكم لا لنرى الفرق بيننا وبينكم واضحاً كالصبح لذي عينين لانك رأيت هذا الفرق ولمسته بيدك بل لازيدك علماً بمصائبنا وويلاتنا فتبقى لنا من العاذرين لامن العاذلين . الى الملتقى الى الملتقى

الضرائب وجبايتها أيضاً

اجتمع الشيخ السوري بالشاب المصري على شاطىء النيل في الجزيرة ودار البحث بينهما على بقية الضرائب هنالك ومعاملتها ببقية الضرائب هنا . فقال الشيخ السوري :

وعدتك يا بني في الاجتماع الماضي ان اتمم لك تلك حديث الضرائب في بلادنا فها أنذا موف بالوعد فاسمع ما اقول ولا تعجب ان سمعت ما لم يخطر لك ببال وان كان حديثنا او حديث حكومتنا في بلادنا كله عجائب وغرائب

الضرائب التى تنوء تحت حملها بعد ضريبة الاعشار هي «١» ضريبة ويركو الاراضي الزراعية «٢» ضريبة ويركو الاراضي المشجرة «٣» ضريبة المسقفات «٤» ضريبة ويركو الحرب «٥» ضريبة الويركو الشخصي «٦» ضريبة المواشي

والانعام «٧» ضريبة الطرق «٨» ضريبة الاعانات «٩» ضريبة الجريدة الرسمية

فالضريبة الاولى تؤخذ من كل من يملك ارضا بنسبة ثمنها فان كان غالياً كانت الضريبة كبيرة وان كان رخيصاً كانت صغيرة . ومع ان هذه الضريبة ظلم في حد ذاتها يعم الغني والفقير — لان الارض تأخذ الحكومة ضريبة اعشار حاصلاتها فمن الظلم ان يؤخذ منها ضريبة أخرى — فهناك ظلم آخر خاص بالضعيف الفقير وحده وهذا الظلم جاء من تقدير ثمن الاراضي . فاراضي الاغنياء والمتنفذين رخيصة الثمن بالنسبة لثمن اراضي الفقراء الضعفاء مع ان تربة الاولى اخصب وأجود من تربة الثانية اضعافا مضاعفة . والسبب في هذا التفاوت في هذه الاثمان ان الاغنياء والمتنفذين يشبعون بطون مأموري الويركو عند تقدير ثمن الاراضي فيقدرون اراضيهم بثمن بخس فتكون ضريبة الويركو عليهم خفيفة الحمل يكادون لا يشعرون بها . واما الفقراء الضعاف الذين لا يستطيعون ان يشبعوا بطون انفسهم فضلا عن بطون اولئك المأمورين فهؤلاء هم الذين يرزحون تحت اثقال هذه الضريبة اذ تقدر اراضيهم باثمان باهظة فتكون ضريبة الويركو عليهم كبيرة ثقيلة

ومن تقدير اراضي الفقراء مثل هذا التقدير لحق الضرر بالحكومة زيادة عما لحق بأصحاب الاراضي اذ ان ذلك كان سبباً في اوقات كثيرة في اكل اموال الاعشار واموال البنك الزراعي وتعطيل رسوم الطابو (تسجيل عقود بيع الاراضي) لأن بعض المتنفذين الذين لا يملكون ارضا ولكنهم يملكون نفوذاً على الضعفاء الذين يملكون مثل هذه الاراضي يضمنون الاعشار بكفالة اراضي هؤلاء الناس فيخرجون ثمنها من قلم الويركو ويأخذون اعشارا تساوي هذا الثمن فان اكلوا اموال الاعشار وارادت الحكومة ان تبيع الاراضي الضامنة لهم ووجدت المشتري لها فلا تجد من يسومها الا بثمنها الحقيقي الذي لا يبلغ عشر معشار ثمنها المقرر في قلم الويركو

واما اكل اموال البنك الزراعي في هذا السبيل فمثل أكل أموال الاعشار فالبنك يعطي الاموال للفلاحين بضمانة اراضيهم فيأخذ الفلاح صاحب الارض ذات

الثمن البخس والويركو الباهظ مبلغاً كبيراً من المال وبرهن ارضه للبنك .
واذا اكل الفلاح ما اخذه من المال وأراد البنك أن يبيع أرضه المرهونة فلا يجد من يسومها الا بثمن يكاد لا يذكر في جنب الثمن المقرر لها في قلم الويركو

واما تعطيل رسوم الطابو فقد جاء من طريقين الطريق الاولى تراكم اموال الويركو على الارض السنين الطوال والحكومة لا تسجل أرضاً الا ان أخذت ما عليها من اموال الويركو المتأخرة والطريق الثانية اخذ الرسوم على حسب الثمن المقرر لها في قلم الويركو لا على حسب الثمن المتفق عليه البائع والمشتري فمن هذين الطريقين هرب البائع والمشتري من تسجيل الارض فرارا من دفع الرسوم الباهظة والاموال المتأخرة على الارض فيكتفي المشتري من البائع بورقة عرفية يقال لها حجة . ومن هذا البيع العرفي حدث كثير في البلاد من الفتن والمشاكل والخصومات بين العائلات والجماعات ماكان سبباً في قتل النفوس وازهاق الارواح وخراب البيوت لأن الحكومة لا تعتبر هذا البيع ولعدم اعتبارها اياه يطمع كثير من البائعين أو اولاد البائعين ان آنسوا من انفسهم قوة ومن المشترين او اولاد المشترين ضعفا في أخذ اموال أخرى أو في استعادة ارضهم من دون ان يعيدوا ثمنها فيحدث بين الفريقين حوادث ترعد المفاصل وتشيب الاطفال . فقال الشاب المصري :

ليس العجيب ان تخرب دياركم من عمرانها وتقفر بلادكم من سكانها وتمحل ارضكم من نباتها ومرعاها وتجرد حكومتكم من قوتها بل العجيب ان تبقى لكم الى الآن ديار عامرة ولو بالاكواخ والعشش وبلاد آهله ولو بالمقعدين من العجائز والنساء والاطفال وارض نابتة ولو بالاعشاب وحكومة قائمة ولو برجال كالخشب المسندة فأين اولئك المغرورون ؟ اين اولئك المفتونون ؟ اين اولئك الذين طمس الله على سمعهم وعلى بصرهم غشاوة فلا يشعرون ولا يحسون الا ما تمليه عليهم عواطفهم الكاذبة وامالهم المنحرفه؟ اين اولئك البسطاء اصحاب الفطرة السليمة الذين اضلهم مأجورو الاتحاديين على غير علم ؟ اين هؤلاء الناس كلهم يأتون وبسمعون ولمسون هذه الحقائق التي لا ريب فيها ليعلموا

انهم ضالون عن الحق تائهون في بيداء الجهالة وان حكومة مثل حكومة الاتحاديين التي تفعل في نفسها وفي بلادها ما عجزت شياطين الجن ان تفعل مثله لا تستحق عطف عاقل ولا حنان منصف اذ كل اعمالها معاول خراب ودمار ضعضعت بنيان الدولة وقضت على حياة الامه . فقال الشيخ السوري :

مهلا يا بني فلا تعتب المفتونين في بلادك ولا تلم المغرورين من بني قومك بل قل كما كان يقول نبينا «رب اهد قومي فانهم لا يعلمون» ولو علم اولئك الناس حقيقتنا وحقيقة حكومتنا كما علمتها أنت لعذرونا وقالوا مثلما تقول انت الآن . ولا اظن انه يوجد في بلادكم من بني قومك رجل اختبر هذه الحقائق وعرفها ويكابر فيها مثلما يكابر المكابرون اليوم وان وجد ذلك الرجل وكابر بعد اختباره ومعرفته فلا يكون من طلاب الحقيقة بل من طلاب الفائدة الذاتية والمنفعة الشخصية ولو كانتا وهما من الاوهام او حلما من الاحلام . يريد مثل هذا الرجل ان يعيش تحت راية الظلم والاستبداد ليستفيد من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين وهذا الامر لا يتيسر له تحت راية الانصاف والاصلاح لذلك يكابر ويحاول ان يقلب الحقائق ويموهها فدع مثل هذا الرجل يا بني وشأنه الى الدهر ابي العبر وعليك ان ترشد الضالين على غير علم فهؤلاء اذا عرفوا ما عرفت اهتدوا كما اهتديت وسلكوا كما سلكت صراط الله المستقيم

والآن وقد عرفت ضريبة ويركو الاراضي الزراعية كما عرفت ما تنتجه من المصائب والويلات علينا وعلى حكومتنا فدعني اتمم لك حديث هذه الضرائب في بلادنا

تلي ضريبة ويركو الاراضي الزراعية ضريبة ويركو الاراضي المشجرة فهذه تؤخذ ممن يملك ارضا ذات اشجار وهي كأختها في الظلم الخصوصي والعمومي اي من جهة ان الحكومة تأخذ عشر حاصلات اشجارها ومن جهة تفاوت تقدير اثمانها . وهي كأختها ايضا تضر بالحكومة زيادة عن ضررها بالاهلين

وتلي هذه الضريبة ضريبة المسقفات فتؤخذ ممن يملك عقارا وهي كالضريبتين

السابقتين في الظلم والتفاوت في الظلم وبضررها بالحكومة وبأصحاب العقارات وبمن يريد ان يشتري عقارات

وبعد هذه الضريبة تأتي ضريبة ويركو الحرب وهذه حدثت في البلاد حديثاً تؤخذ من كل من يريد ان يأخذ من الحكومة ورقة رسمية او يرفع اليها ورقة رسميةوما اكثر الاوراق الرسميةفي دوائر حكومتنا أخذاوعطاء

وضريبة الويركو الشخصي وهذه تؤخذ سنويا من كل من يحترف حرفهولو كانت حرفة زبال او حمار وهذه الضريبة تتفاوت قيمتها بتفاوت درجات اصحابها فمن كان من عبيد المتنفذين كانت ضريبته قليلة والعكس بالعكس فأنتجت هذه الضريبة في البلاد قلة المحترفين وكثرة العاطلين

وضربت الحكومة على كل رأس من المواشي والانعام ضريبة فتخرج كل سنة الى القرى مأمورين لتعداد المواشي فيعدون الغنم والبقر ويحصلون ضرائبها ومع ان هذه الضريبة ظلمفيظلم فلم تفدغير المأمورينالذين يخرجون للتعداد فان اصابوا من اصحاب المواشي أكلة دسمة جعلوا عدد مواشيهم قليلا دون الحقيقة والا جعلو عددها كثيراً دون الحقيقة ايضاً .فمن هذه الضريبة لم تستفد الحكومة فائدة تذكر . ومن هذه الضريبة زهد الناس في مواشيهم وانعامهم فباع اكثرهم ما يملك وقلل البعض ما يقتنيه منها

واما ضريبة الطرق فهي اعجب من هذه الضرائب بل انها أقرب الى السرقة واللصوصية منها الى ضريبة رسمية قانونية . يأخذون من كل مكلف سرعا اي من كل بالغ سن الرشد من الذكور ريالا مجيديا كل سنة باسم انشاء الطرق العمومية وتصليحها بين المدن والقصبات والقرى تسهيلا للنقل والمواصلات ولكنهم لم ينشئوا طريقا ولم يصلحوا دربا الا بعض الطرق والدروب لم تلبث بعد الانشاء او التصليح ان تهدمت وعادت الى سابق عهدها ولم يفكروا في اصلاحها يوما من الايام . ولو انفقت هذه الضريبة على ما اخذت من اجله لاصبحت البلاد السورية كالحلقة متصلة الاطراف والنقل والانتقال بين مدنها وقراها من اسهل الامور.ولو رصت ارض الطرق عندنا بالريالات التي اخذوها

من المكلفين مدة ثلاثين سنة بدلا من الحصى لكان لنا منها طرق تشبه الطرق المنظمة في البلاد الراقية ولكن حكومتنا تأخذ هذه الضريبة الى عاصمتها وهناك تتسرب دراهمها اما الى جيوب القائمين بأمرها وأما الى انشاء الطرق في البلاد الروملية أو البلاد الاناضولية

واما ضريبة الاعانات وما اكثر الاعانات في بلادنا . فمن اعانة اسطول الى اعانة حرب الى اعانة بناء السرايات ودور البريد والتلغراف الى اعانة المكاتب الى اشياء كثيرة فهذه وان لم تكن ضريبة قانونية الا انهم وضعوها في موضع الضرائب القانونية. فكل يوم يقولون لاهل القرى هاتوا اعانة للاسطول ويضربون على كل قرية مبلغاً معلوما من المال وكل يوم يقولون لهم هاتوا اعانة حربية ويضربون على كل قرية مبلغاً معلوما من المال. وكلما بنو سراية او دارا للبريد والتلغراف قالوا لاهل القضاء او أهل اللواء او أهل الولاية الذين بنيت السراي أو المكتب او الدار في قضائهم او لوائهم او ولايتهم هاتوا اعانة لهذه البنايات ويضربون عليهم مبلغاً معلوماً من المال . وكل يوم يقولون للفروبين هاتوا اعانة للمكاتب ويضربون على كل قرية مبلغاً معلوماً من المال . ويجبون هذه الضريبة كما يجبون الاموال الاميريه الرسمية طوعاً او كرهاً واعيان القرى ومشايخها هم الذين يتصرفون في توزيع هذه الاعانات على الفلاحين كما يريدون ويشتهون . فمن كان من عبيدهم خففوا عنه وطأة هذه المظالم ومن خرج عن طاعتهم جعلوه يرزح تحت اعباء هذه المغارم . ومن هذه الضريبة التي تتوالى كل شهر وكل سنة مع الضرائب التي مر بك ذكرها خربت بيوت عامرة وافتقرت عائلات غنية وباتت اسر كريمة الليالي الطوال تشد البطون من الجوع ومن هذه الضريبة كثر الاشقياء وقطاع الطريق ينهبون ويسلبون ليسدوا رمقهم ورمق عيالهم واطفالهم اولا وليدفعوا ما عليهم من الضرائب المتوالية ثانياً

واما ضريبة الجريدة الرسمية فانها كسابقتها ضريبة غير قانونية ولكنها تجبى مع الضرائب القانونية فقد خصوا كل قرية بجريدة او جريدتين او ثلاث او اكثر ولكن اهل القرى لا يرون هذه الجريدة في السنة مرة او مرتين

في بلدهم وربما لا يرونها الا في ايدي الموظفين في قضائهم وقيمة اشتراكها تؤخذ من مختاري القرى ومشائخها وهؤلاء يأخذونها من الفقراء والمساكين

هذه ضرائبنا وهذه مصائبنا واما جبايتها فكما علمت من جباية اموال الاعشار في الاجتماع الماضي تخريب وتدمير ونهب وسلب وجلد وضرب وبيع الآنية والماعون والفرش والدواب وقوت اليوم. فهل عرفت يابني كيف ذهبت هذه الضرائب بآمالنا في تحصيل الرزق في بلادنا واكتساب الاموال في اوطاننا وكيف انقبضت ايدينا العاملة عن السعي في الاكتساب وكيف كسدت اسواق عمراننا. وكيف انتقضت احوالنا وكيف تشردنا في الآفاق . وكيف خلا قطرنا من سكانه وديارنا من اهلها وكيف خربت امصارنا وكيف اختل باختلالنا حال دولتنا وسلطاننا ؟ فهل ترى مثل هذه الضرائب ومثل هذه المصائب في بلادك ؟ وهل تجبو حكومتك الاموال من بني قومك مثلما تجبو حكومتنا هذه المظالم والمغارم منا ؟ فقال الشاب المصري :

قلت لك يا عم في الاجتماع الماضي ولا ازال اقول اني لم اعد استطيع ان اسمع المقابلة بين بلادي وبلادك وحكومتي وحكومتك الا ان استطعت ان اقابل بين الثريا والثرى أو بين المدنية والهمجية أو بين العمران والخراب . فما في بلادنا غير ضريبة الاطيان التي مر بك ذكرها في الاجتماع الماضي . ومن حديثنا عن هذه الضريبة علمت كيف انها وضعت على اساس الحق والعدل وكيف ان الحكومة تجبوها بالطرق القانونية المعقولة بلا ارهاق احد ولا ازعاج انسان . وفي السنين الاخيرة وضعت الحكومة ضريبة الخمسة في المئة على الفدادين وجعلتها تحت تصرف مجالس المديريات تنفقها على العلم والتعليم واصلاح المديرية. وهناك ضريبة أخرى وهي ضريبة النخل فهذه وان كانت خفيفة طفيفة فلا تزال الحكومة وعقلاء الامة يفكرون في دفعها عن عاتق اصحاب النخل

هذا ما عندنا من الضرائب وكلها لمنفعة الحكومة وفائدة البلاد وكلها قائمة على اكتاف اصحاب الاطيان والفدادين فالفقراء بل الاغنياء الذين لا يملكون طيناً ولا فداناً لا يكلفون منها بقرش واحد فلا نعرف في بلادنا اعشارا ولا

نوعا من انواع الويركو ولا ضريبة مواش وانعام ولا ضريبة طرق ولا ضريبة اعانات ولا ضريبة جريدة رسمية.فالحمدلله ثم الحمدلله على ما نحن فيه من الخيرات والبركات . والشكر لله ثم الشكر لله على العافية مما ابتليتم به من المصائب والويلات . وارجو يا عم ان يكون هذا الاجتماع آخر اجتماع سياسي بيني وبينك لاني اقتنعت بتعسكم وشقائكم كما اقتنعت باننا في خير وسعادة من الله ولاني لم اعد استطيع ان اسمع حوادث حكومة الاغرار الجاهلين المخربين المدمرين اذ أنها تفتت الاكباد وتذيب القلوب حزنا وحسرة على الحالة التي اصبحتم عليها انتم وبلادكم وحكومتكم . فقال الشيخ السوري :

وانا احمد الله كما حمدت واشكره كما شكرت . احمده واشكره لانه هداك الى الصواب وفتح عينيك حتى ابصرت الحق وانكرت الباطل فرثيت لمصائبنا وويلاتنا وقدرت نعم الله عليك وعلى قومك . فأوصيك يا بني قبل ان نفترق ان ترجع الى اخوانك الشباب واجتهد في ازالة ما علق في اذهانهم من الاوهام والخيالات بما تلقيته عني من الدليل والبرهان . وان تذهب الى البسطاء من القرويين اصحاب الفطره السلسه الذبن اضلهم أصحاب الغايات والاغراض عن الهدى وبث بينهم الحقائق وارشدهم الى ان خير بلادهم وسعادة اوطانهم بالبعد عن الظالمين واجتناب المفسدين وعدم الانصياع لكذب الكاذبين ونميمة النمامين وقل لهم ان حمد المنعم من الواجبات وشكر المحسن فرض من الفروض. اولئك اصحاب الفطرة السليمة ان وجدوا امثالك وطنياً عاقلا صادقا ينير ابصارهم ويقلع من صدورهم جذور الوساوس والهواجس يثوبون الى الرشد ويعودون الى الصواب ويكونون من عبيد الحق أينما كان وحينما وجد. فاحرص يا بني على وصيتي هذه لتكون من الوطنيين المخلصين ومن عباد الله الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . فاستودعك الله يا بني

خاتمة الكتاب

الى هنا انتهى حديث الشيخ السوري مع الشاب المصري وهو حديث يقرر حقا ويقول صدقا ما ضل صاحبه وما غوى ولا ينطق عن هوى ان هوالا حقائق ملموسة باليد وحوادث مشاهدة بالعين جئت بها بعد ان قلتها درسا وبحثا واستقصاء وتجربه واختبارا فعسى ان تنفع اولئك القوم البسطاء من اخواني المصريين الذين اضلهم على غير علم ذلك الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس فحال بينهم وبين ادراك الحقيقة حتى تركهم يتخبطون في دياجي الباطل فيقولون ما لا يعقلون ويتكلمون بما لا يعلمون

الامراض التي قضت على حياة الامم وذهبت باستقلال الشعوب كثيره متنوعة منها بعد عدم احسان السياسة نكران الجميل وكفران النعمة وعدم الشكر والحمد والاحسان . ولهذا قال الله في القرآن «ولئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد»

وقد رأيت هذا المرض يدب دبيبه في احشاء فئة من الأمه المصريه فخشيت ان يصيب هذه الامة الكريمه جميعها فيذهب بالنعمة التي تتقلب فيها ويحرمها الاحسان الذي تتمتع بخيراته وبركاته فرويت لها في هذا الكتاب حديث اختها الامه السوريه وحدث آلامها واسقامها وما تنوء تحته من المصائب والنوائب لتغتبط بما هي فيه من النعمه وتقر عينا بما آتاها الله من الفضل والاحسان

وربما يظن بعض الناس اني لم انتقد الحكومه العثمانيه ولم اندد باعمالها وأشهر بعمالها وموظفيها الا مداهنة وتملقا للحكومه المصرية الحالية فأقول لهؤلاء الظانين ظن الاثم انيمنذ دخلت معترك هذه الحياة الى الساعة التي نحن فيها والى ان أذهب مع الامس اتخذت الحريه دينا ومذهبا اقول ما اعتقد واعتقد ما اقول سواء كنت هنا أو هناك لا انام على باطل ولا اسكت عن حق . اكره الظالمين المستبدين وأمقتالجائرين المفسدين وأحبالمصلحين المخلصينواعجب بالعاملين

النافعين . كبير الثقة بالله لا اخشى شر احد ولا ارجو خير احد

وقد اشتغلت بالصحافة المصرية حينا من الدهر وقفت فيه موقف الذائد عن الحق الكاره للباطل المنكر للظلم المحب للعدل.ولي وقفات مشهودة مع الخديو السابق ومعيته يوم كان وكانت مع الاصلاح والمصلحين على طرفي نقيض ومع السلطان عبد الحميد وحكومته يوم طغى وبغى وجار واستبد وبقيت في مصر أقف مثل هذه المواقف حتى اعلن الدستور العثماني فرجعت الى وطني الاول مندوبا لجريدتين من الجرائد الكبرى المصرية ثم رئيساً لتحرير جريدة الحقيقة الاسلاميه البيروتيه ثم صاحبا لجريدة الوطنية . ولو كان في هذا الكتاب متسع لأتيت بكثير مما كنت اكتبه وانشره تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها في هذه الصحف من المقالات والفصول في انتقاد تلك الحكومة والتنديد باعمالها والتشهير بعمالها مما يماثل فصول هذا الكتاب

فهذا القلم حر هناك كما هو حر هنا لا يجري على القرطاس الا والاخلاص رائده والنصيحة مقصده والخدمة العموميه غايته . لا تبهره زخارف هذه الحياة ولا تغره الابتسامات ولا تستعبده الاعطيات . ولا يثنيه من اهل الباطل عن السير في سبيل الحق رعد ولا برق . وبرهانا على هذا القول اقتطف لقراء كتابي هذا شيئاً مما كنت اكتبه وانشره في جريدتي الوطنيه يوم كنت اصدرها تحت سماء بيروت وانشرها في طول البلاد العربية العثمانيه وعرضها . وهذا ما انسع له المقام

دستور أم استبداد

الوطنيه العدد الرابع . بيروت في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٨ الموافق ٢٢ دسمبر سنه ١٩١٠

هل نحن في زمان دستور لا حكم فيه الا للقانون او في زمان استبداد الحكم فيه للرؤساء والاشخاص

من نحو ثلاثة اشهر جاء يافا قائمقام يحسن اربع لغات باصولهن وفروعهن فرجونا على يديه الاصلاح وسألنا ان لا يكون حظه من القائمقامية كحظ من سبقوه من القائمقامين الذين بلغ عددهم بعد الدستور احد عشر قائمقاما فكان الواحد منهم لا يكاد يمضي عليه الوقت اللازم ليدرس فيه حالة البلاد ويقف على مواضع دائها ودوائها حتى تفاجئه الحكومة بالنقل الى محل اخر . وكان المحبون للاصلاح يتذمرون ويتأففون من سرعة التعيين وسرعة النقل لان بذلك اسقاطاً لحيثية الحكومة في نظر البسطاء وتنبيطاً لهمة الخلف

الا ان حكاية القائمقام الذي نحن بصدده كانت ادهى وامرّ لان الرجل ما كاد يستقر به الجلوس في وظيفته حتى فاجأه البرق بخبر العزل فوقع هذا الخبر موقع العجب والاستغراب لانه مخالف للقانون وغير منطبق على روح الدستور. وقد ذكرنا هذا العزل بهذه الصورة تلك الايام الماضية التي كان يعزل فيها الموظف بمجرد رأي الرئيس او ارادة الآمر

فكيف هذا ونحن نسمع ونقرأ في الصحف والنظامات ان كل فرد من افراد الامة اصبح بفضل الدستور امينا على حقوقه ومصالحه . كأن هذه الكلمات هي اسماء لغير مسميات. ان هذا العزل الفجائي اخذ من قلب المأمورين والموظفين مكان الطمأنينة لانهم اصبحوا يخالون ان تلك المواد التي يقرأونها في القانون الاساسي ما هي الا من قبل (اقرأ تفرح جرب تحزن)

اذا كان القانون نص بصريح العبارة انه لا يجوز عزل مأمور من وظيفته الا ان جاء بفاحشة مبينة اثبتتها عليه المحاكم النظامية فكيف يعزل اذاً قائمقام يافا قبل ان يحال الى المحاكم ويثبت عليه ما يخرجه من وظيفته . اني اعتبر مثل هذه الحركات المنافية للدستور هي ضربة على الدستور ومسبة لحكومته

ان يافا ذات موقع عظيم في جغرافيتها وتجارتها وكثرة الاجانب فيها . فأقل عمل يعمل فيها لا تقتضيه روح الدستور يجعلنا مضغة في افواه الاجانب . فهؤلاء اصبحوا بعد عزل القائمقام يتغامزون علينا ويسخرون منا لاننا لم نراع ما سنناه من القوانين وما وضعناه من النظامات

ليتني ادري او ليتني اعرف كيف اجازت نظارة الداخلية لنفسها ان تعزل موظفا من موظفيها قبل ان تبحث وتدقق في أمره وتحيله الى المحاكم النظامية حتى اذا ثبت عليه ذنب تجازيه الجزاء القانوني وتنشر اسباب حكم المحكمة في عزله حتى يتأدب غيره ويكون الناس على بصيرة من امره . على ان القائمقام سئل عن ذنبه فكان جوابه ليس المسئول باعلم من السائل

فلسطين وحكامها

من تعليق على فصل عقده رفيق بك العظم في جريدة الحضارة للكلام على فلسطين ويهودها

الوطنية العدد السابع . بيروت في ١١ محرم سنه ١٣٢٩ الموافق ١٢ يناير سنة ١٩١١

• وهؤلاء الناس جاءهم الدستور وهم عالة على الحكومة فاذا خاطبتهم في شأن من شؤون حياتهم قالوا لا تخاطبنا بهذا بل خاطب الحكومة فهي المسئولة عنا وعن شؤوننا فان شاءت اسعدتنا وان شاءت اشقتنا فلهم لا تنجح فيهم مقالة قائل ولا نصيحة ناصح ولو ضربت لهم ابلغ الامثال وسقت اليهم انصع الحجج واقوى البراهين ولا دواء لهذا الداء المميت على ما يرى العارفون الا ثلاثة اشياء

الاول ان مجلس المبعوثين يضع قانونا مستبدا عادلا يسوق مثل هؤلاء الناس بالعصا الى حيث تؤسس الشركات وتقوم الجمعيات وتعمم الكتاتيب في القرى فاذا وجد هذا القانون لا يلبث البلادان يتم عمرانها ويسعد سكانها

على ان القوانين مهما كانت عادلة ومهما كانت موافقة لمقتضيات الزمان والمكان لا تفيد فائدة ما لم يقم على تنفيذها حكام مخلصون لوطنهم ودولتهم خبيرون بطبائع الناس الذين وضعت لهم القوانين . عالمون باخلاقهم وعاداتهم.

آخذون من الحكمة بنصيب . اصحاب غيرة وطنية وحمية ملية . ولهذا يلزم ان ينتقي موظفو حكومات فلسطين من الرجال الحكماء المخلصين الخبيرين الوطنيين الغيورين حتى ينقذوا بمثل هذه الصفات وشدة ذلك القانون اهل تلك البلاد من الهوة العميقة التي انزلهم فيها الاستبداد والمستبدون

الثاني ان تعين الحكومة لمتصرفيات الوية فلسطين وقائمقاميات اقضيتها رجالا لا يكتفون من الوظائف والمناصب بقبض الراتب ومسح الشارب . والتبجح بالعفة والنزاهة والاستقامة كما هو شأن كثير من اولئك المتصرفين والقائمقاميين بل يستعملون نفوذهم الادبي في تأسيس الشركات وانشاء الجمعيات وتنشيط الناهضين ومساعدتهم فان اناسنا وان كان لهم ثلاث سنين يتمتعون بالدستور الا أنهم لا يزالون كما كانوا بالامس يتهافتون على التقرب من الحكام والتزلف اليهم لنيل ابتسامة منهم او كلمة رضاء عنهم فاذا رأوا من المتصرف او القائمقام رغبة موجهة الى مشروع عمومي اندفعوا اليه بكليتهم وطفقوا يتسابقون لبذل المال في سبيله

ومن الاسف ان اكثر متصرفي فلسطين وقائمقاميها ليسوا الا واحدا من ثلاثة اما رجل جلس على كرسي وظيفته لا يعمل فيها الا الرسميات واما رجل يناهض النهضات ويقاوم الجمعيات ويعمل جهده لاحباط مساعي الشركات . واما رجل لا يزال حافظا قضية «فرق تسد» فلا هم له الا تفريق الجماعات وتشتيت شمل العيلات ولهذا لا ابالغ ان قلت ان فلسطين لا تزال اليوم في اكثر شؤونها الاجتماعية والاخلاقية مثل ما كانت البارحه

واسف فوق اسف ان الحكومة اغمضت عينها عن مثل هؤلاء الحكام فلا تحاسبهم على اعمالهم ولا تسمع شكوى من سوء تصرفاتهم كأنها تقرهم على حركاتهم وسكناتهم التي لا تنطبق على روح الدستور ولا تلتئم مع مصلحة البلاد . وفي الوقت الذي تسكت فيه عن هؤلاء تأخذ بخناق المخلصين اذا وجد المخلص منهم كما فعلت مع مسعود بك قائمقام بني صعب فانها عزلته شر عزلة في الوقت الذي كان صارفا همه فيه لانشاء شركة تجلب للقضاء الآلات الزراعية الحديثة ومجتهدا

لتعميم الكتاتيب واصلاحها في القرى وانتقاء المعلمين الاكفاء لها وتركت غيره من المتصرفين والقائمقامين النائمين على كراسي وظائفهم والعاملين للانقسام والتفريق

حكومتنا ومشروعاتنا الوطنية

الوطنية العدد الثامن . بيروت في ١٨ محرم سنة ١٣٢٩ الموافق ١٩ يناير سنة ١٩١١

لست على مذهب الكثير من اخواننا العثمانيين الذين يذهبون الى ان الحكومة الدستورية يجب عليها ان تنهض بمشروعاتنا العمومية وتؤلف شركاتنا الوطنية لان مثل هذه الوظيفة من شأن الامم لا من شأن الحكومات . وغاية ما اذهب اليه في هذا الموضوع والامة العثمانيةوحكومتهافي اول دور من ادوار الدستور ان الحكومة تبذل مجهوداتها ضمن دائرة القانون والنظام لتنشيط الامة وترغيبها وتشويقها بجميع وسائل التشويق والتنشيط والترغيب حتى تخلق في جماعاتها روح الاقدام على النهوض بالمشروعات وتأليف الشركات . ولهذا كاد مدادي يجف وقلمي يكل وانا اكتب احيانا في الجرائد المصريه واحياناً في الجرائد السوريهفي دعوةالامةالنهوض بمشروعاتها وتأليف سركاتهابدون اعتمادالا على نفسها وفي دعوة الحكومة الدستورية لبذل نفوذها الادبي في تحقيق هذه الرغبات وقضاء هذه اللبانات لتنشط الامة من عقالها وتقوي الحكومه الثقه العامه بها وبرجالها

وكأن هذه الدعوة لقيت اذنا سامعه من فريق واذنا صماء من فريق . فقد قام في البلاد الفلسطينيه بعض المشروعات وتألفت بعض السركات فصفقنا لها استحسانا ورحبنا بها وبالقائمين بها وحبذنا هذه الخطوات التي نعدها خطوات الى الخير والسعادة وأخذنا نقرظها ونتمنى على الله ان يطيل حياتها ويكثر من امثالها لتعمر بها البلاد ونسعد بنتائجها العباد وبتنا ننتظر من حكومات الالوية والحكومة المركزية ان تشاركنافي التصفيق والترحيب والتحبيذوبذل المساعدةبين

المادية والادبية . فما نشعر بعد هذا الا ان بعض حكومات الالوية ـ كحكومة نابلس ـ تعمل جهدها وتبذل جميع قواها لتعطيل كل نهضة ومقاومة كل خطوة ومعاكسة كل عمل يراد به الانتفال من حال الموت الى حال الحياة وان الحكومه المركزية تساعد هؤلاء المعطلين بسكوتها عنهم وعدم محاسبتهم على مثل هذه الجنايات الوطنية .وزادت اخيرا في الطنبور نغمة اذ اصبحت هي نفسها تلقي في سبيل الناهضين الصعوبات وتقيم في طريقهم العثرات حتى اخمدت الهمم وحلت العزائم وبعثت في نفوس القائمين باصلاح البلاد اليأس والقنوط ولا اذهب بالقراء بعيدا لاقامة البرهان على صحة هاتين القضيتين ـ قضية حكومات الالوية وقضية الحكومة المركزية ـ ففي حوادث نابلس ومتصرفها التي قرأوها كثيراً في اعداد الوطنية ما يغنيهم عن البرهان على صحة القضيه الاولى واما القضية الثانية فاليهم برهانها

الف يعقوب افندي ابو الهدى وهو من اغنياء يافا وسراتها ومن الرجال القليلين الذين نصروا الدستور فيها باموالهم وخدموه بأنفسهم شركة عثمانية برأس مال قدره مليون فرنك اكتتبت به الشركه ووضعت عشره من نحو سنة في بنك المان فلسطين وذلك لردم جانب من البحر من جهة المنشية يمتد من الجمرك الى فندق فانكوت وعقدت الشركة اتفاقا مع بلدية يافا وسجلته في قلم المقاولات بشروط خمسة «١» ان تردم الشركه الجهة المراد ردمها على حسابها ونفقتها (٢) ان البلدية تأخذ نصف الارض المردومه بدون ان تدفع قرشا واحدا لا في الاول ولا في الآخر (٣) ان الشركة تتعهد بانشاء شارعين في هذه الارض على الطرز الحديث على حسابها وتقدمهما للبلدية (٤) ان الشركة تتعهد بمد خط حديدي من درج الجمرك لمحطة سكة حديد القدس لتسهيل النقل (٥) ان واردات هذا الخط تكون مناصفة بين الشركه والبلدية مده خمس عشرة سنة ويبقى بعدها حقا للبلدية دون ان يشاركها فيه مشارك

قامت هذه الشركة التي هي اول شركة وطنية عثمانية قامت بعد الدستور في فلسطين عموما وفي يافا عروس فلسطين خصوصا فماذا لقيت من الحكومة

الدستورية من الترغيب والتشويق والمساعدة حتى تتشجع هي على اتمام مقصودها ويتشجع غيرها على السير في طريقها . لفيت من الحكومة المركزية او امر تصدر لحكومة القدس باحباط مساعيها واحكام اليأس والقنوط من قلوب رجالها

كنت قبل هذا الحادث اعلل النفس عما اراه من مناهضات بعض حكومات الالوية للنهضات والشركات بان الحكومة المركزية متى علمت بذلك تصلح ما احتل وتداوي ما اعتل . والآن لا ادري بماذا اعلل النفس وحكومة الاستانةهي التي وضعت العراقيل في طريق اول شركة عثمانية قامت في عروس فلسطين

كتبت كثيراً وقلت كثيراً يجب ان تعتمد الامة على نفسها لا على الحكومة فكيف تستطيع الامة ان تحقق هذه القضية العمرانية وحكومتها لا تساعدها وتعمل لما يجعلها دائماً قاصرة محتاجة للوصاية عليها.وبأي لسان يقدر المصلحون المخلصون يخاطبون الامة بتأسيس الشركات وانشاء الجمعيات وايجاد المشروعات والحكومه وعمالها يفلون العزائم ويثبطون الهمم ويصرفون الافكار الوطنية عن العمل للوطن وتقدمه ماديا وادبيا

ان يافا هي كما قلت عروس فلسطين ومفتاح البلاد المقدسة يؤمها الاجانب على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم من الملك الكبير الى الصعلوك الحقير ومدخلها من ابشع واشنع مداخل المدن العثمانية ومشروع يعقوب افندي يجعل يافا ذات منظر بهيج ويزيد في عمرانها وجمالها ويمحو عن جبينها نقطة ذهبت بحسنها وجمالها ويعود الوطنيين على الاعمال العمومية ويعلمهم الاتكال على انفسهم ويبعث في القلوب التي اماتها الاستبداد روح الجد والاجتهاد فلماذا والامر كذلك تعاكس الحكومة القائمين به وتضع العثرات في سبيل نجاحه ؟ ؟

ناظر الداخلية المستقيل وتأثير استقالته في البلاد

ملخصة من مقال طويل

الوطنية . العدد الثالث عشر . بيروت في ١ ربيع اول سنة ١٣٢٩ الموافق ٢ مارس سنة ١٩١١

استقال طلعت بك ناظر الداخلية من منصبه فشغلت استقالته الصحف العثمانية

واصبحت حديث العثمانيين ويكاد الكل يجمع على ان هذه الاستقالة جاءت لمصلحة الدولة والامة والبلاد لانه كان يفضل في وظائف الملكية التركي المحض ولو كان افل كفاءة ودراية من زميله العربي ولانه لم يسمع شكوى الشاكين من الولاة والمتصرفين والقائمقامين ولان سوء الادارة في زمانه عم اكثر جهات البلاد حتى تضعضع الامن العام واختل النظام .في المتصرفيات والقائمقاميات كانت ولا تزال تجري امور لا تنطبق على القانون (١) لضعف الارادة ومن ذلك تقويت شوكة الاسقياء في البلاد فاصبحوا اصحاب الحول والطول يخافهم الآمنون المطمئنون لانهم لا يجدون من الحكومة حزما يريح الناس من شرورهم وفظائعهم. فقد شاهدت بنفسي بين نابلس وبني صعب كنبرا من شجر زيتون دير شرف ورامين وبعضا من زيتون عنبتا محروقا ومفلوعا من عروقه والنساء والشباب والدواب تحمله حطبا محروقا فماذا فعلت حكومتا نابلس وبني صعب مع الجانين. انها لم تفعل شيئاً ولم تقبض على جان ولم تعاقب مجرما . واهل القرى في ذلك اللواء يشكون مر الشكوى من كثرة التعدي والسرقة وقطع الطرق وهم يعلمون خصومهم ولكنهم لا يجرأون على الشكوى للحكومة لانها لا تدفع عنهم تعديا ولا تعيد اليهم مسروقا ولا تؤمن لهم طريقا . ومثل هذا موجود في لواء القدس فاهله يشكون مر الشكوى من ضعف الحكومة امام الاشقياء (٢) سوء الادارة ومن هذا ارتبكت الاعمال واضطربت الاشغال واصبح المتصرفون والقائمقامون لا يدرون ماذا يعملون فان عملوا عملا اعتقادا منهم انه في مصلحة البلاد جاء على عكس المقصود مضرا بالبلاد ومؤخرا لاهلها (٣) تمثيل حكومات المتصرفيات والقائمقاميات في كثير من الحوادث ادوار الاستبداد والمستبدين يتعمدون اهانة الاعيان والوجهاء ومضايقة الفقراء بواسطة رجال الجندرمة كما كان يحصل في الدور البائد يعلقون لخيلهم مجانا ويأكلون الطعام الذي يطلبونه مجانا ويضربون مجانا ويهينون مجانا . كل هذا وغيره مثله حصل في البلاد في وزارة طلعت بك فلهذا شارك العامة الخاصة بالفرح والسرور لاعتزاله منصبه

تم الكتاب

